
كتاب اليوم
إمرأة يونيو
سكينة فؤاد
89
Bibliotheca Alexandrina



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر أول كل شهر

□ عدد فبراير ١٩٩٨ □

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهماً
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
المانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

● البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١ ٠

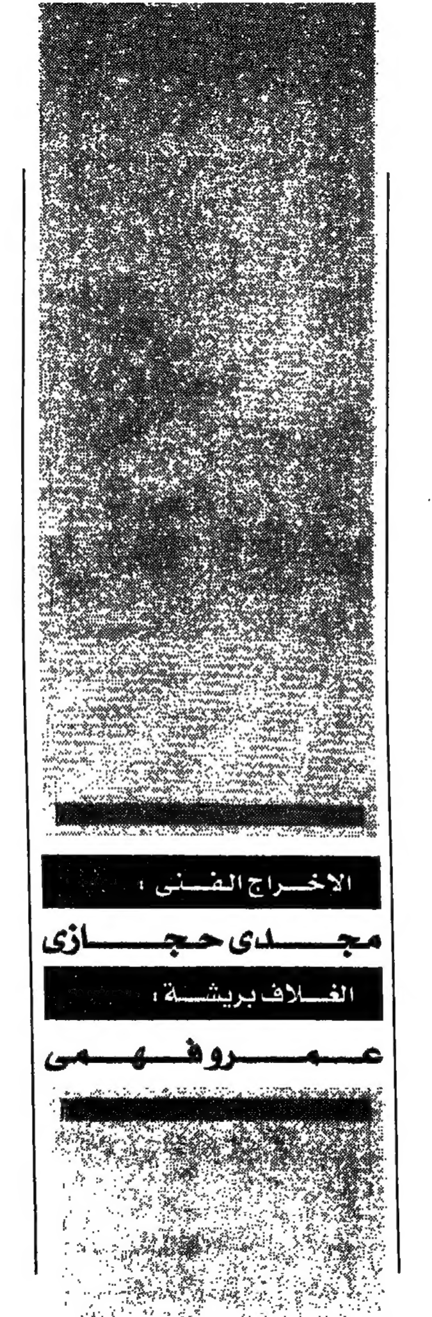
● تلكس محلى : ٢٨٢



امرأة يونيو

بقلم

سكينة فؤاد

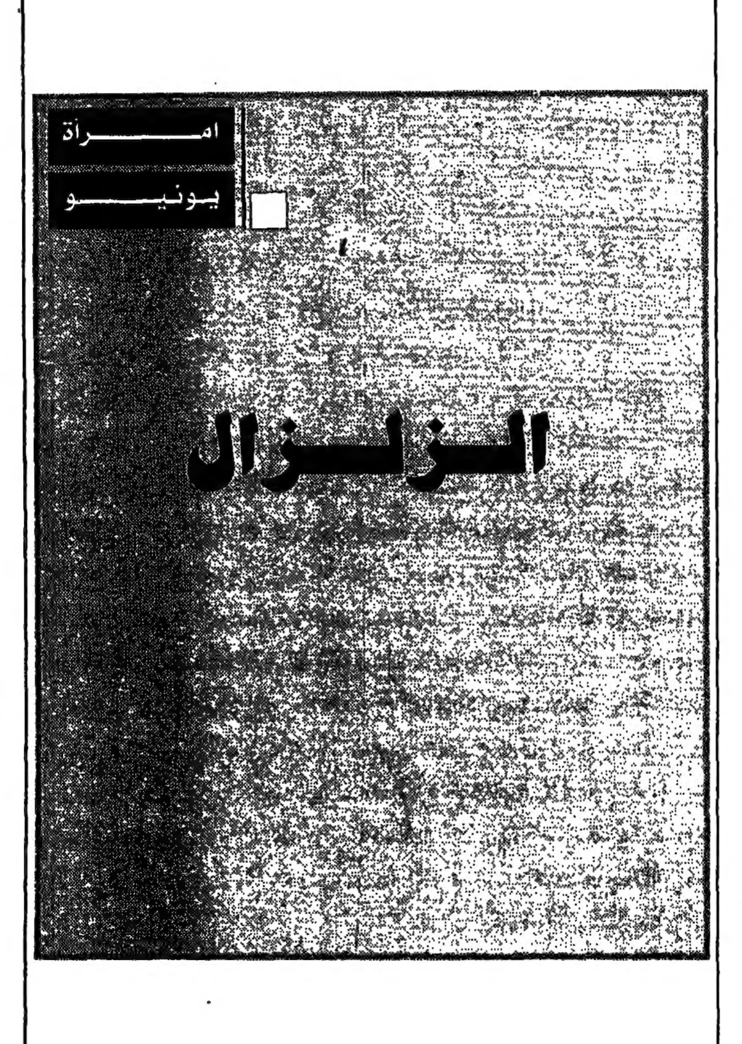


الاخراج الفنى :

مجدى حجازى

الغلاف بريشة :

عمرو فهمى


امـــــرأة
يـونيـــــو
الـزلـزال

(١)

نادت على السمكة وقالت :

أنا التمساح الذى يحيط به الرعب .. أنا التمساح المقدس الذى لا يهلك . أنا السمك العظيم من قمر . تحت الماء وفوق الأرض أتنفس وأشرب وفى الليل يسكنني حابى وفى النهار يتدفق .. أنا السيدة من جبل حلوان وأخرجت السمكة رأسها من الماء وألقت عليها تحية الصباح فانزلقت إليها مع جرف النهر ولامست ظهرها فذابت السمكة وتلاشت فى الماء .. سألتها من الرحمة أم من التعويذة التى سمعتها مني وأنا قادمة أؤنس الجبل وأبدد الوحشة .. اسمعى علقت الأوشابتى فى صدرى .. لابد أنها منهم لا أعرف كيف جاءت وسط أقلامى وألوانى هذا من زمن ولكن لا شيء بلا معنى وساعرف يوما . واحدة منا قالت للثانية احملى معى كل الصعاب واشتدى .. حرث الحقول وغمر القنوات بالماء ونثر الحب من الشلال للبحر وحمل الرمال من الشرق للغرب .

أفرغت ما امتلأ به حذاؤها من رمال وحصى ـ تسكن حيث لا يوجد فى المدى إلا الجبل ـ ارجع الوسع أصداد مأثورة جديدة من التى اعتادت أن ترددها بصوت تسمعه لنفسها لتستدعى

للمعـانى صورها وترسم ما يتـراءى لها فى لحظة صفاء وفـرحة وتجل ـ ضحكت من قـلبها ـ لابد أنهـا ماتت عندما سـمعتـها تلك الذئاب التى أصبحت تتزوج الثعالب وتنجب السلعوات .

استـرجعت آخـر ماحـفظت من كتـاب الموتـى. فربمـا صدى صوتها فى وسع الصـمت ينادى خيالاتها لتخصب رسـومها فلا يكف عقلها عن ميلاد أفكار جديدة

(هلايا من خطوتك واسـعـة .. يا من أتيت من « أنو » إنى لم أسـبب ألما ولـم أتسبب فى بكـاء ولم أغش وأسبب خـراب الأرض المحروثة .

هلا .. يا صـاحب الأنف يا ملتـهم الظـلام ـ يا من أتيت من مـوضع الأسـرار ـ رب العـدل والحق إنى لم ارتكب إثمـا ولم ارتكب الفـحش ولم أصم أذنــى عن كلمـات الحق والعـدل ولم انقض مكيال القمح ولم ألوث أبدا المياه .

هلا وأنا أحـرث وأبذر وأسـقى وأطرح الثمـر نمـا فى مكان الذراع والقلب والأنف والعين والعقل ألف .

هلا .. لم تعـد الملتهم وحـدك .. تجاوزت بالشـدة الأبواب وعبرت ـ أصبحت مثلك ملتهمة الموت والخوف .

(وهى تنفض ثوبها لتـصعد جـرف النهر كانت جـيوش النور مازالت تتقدم وسـيارة الركاب الكبيرة فى موقعـها تتثاءب وأحلى مـا فى السكن المسـافـر فى جوف الصـحـراء أنها تحـصل على السيارة فارغة قبل أن تفقد مـواقع رأسها وأقدامها فى قلب عجين اللحم القادم فــى مشوارها اليـومى إلى مدرستـها بعـين شمس . وبعد انتـهاء حصصـها تركب إلى المكتبـات التى تبيعهـا لوحات البـردى التى ترسم فوقـهـا خرطوشـتيـن واحدة تحـمل عبـارة مرسومة بـرسـومها الهيروغليـفية والثانية برسوم مـشابهة ولكن

من الحروف العربية لنفس العبارة أو تذهب إلى القرية الفرعونية لتشترى مخزونا جديدا من أوراق البردى التى تحتاجها رسومها . لكن أحلى مشاويرها إلى مكتبة عامة تجدد رصيدها من الحكم والمأثورات الفرعونية اكتشفتها بعد أن وقعت فى الأسر .. أصبح فنها مزاجا وإدمانا قد يشدها إلى الصباح ساهرة وقد يسرق معه النهار لو لم تنتبه لإيقاظ زوجها وابنتها .. تتركهما يجهزان أمورهما فالمصنع والمدرسة الابتدائية فى حى السكن وتنطلق هى لجنونها ومشاغبتها للدنيا الواسعة التى لا تعرف من يسكن من .

(تعودت إعادة ترديد واستجلاء مشاهد المقاطع التى تحبها وتكثر من رسمها

أنا شجرة الجميز المقدسة .. أحتضن الماء والهواء بداخلى وأنمو للسماء وتضرب جذورى فى مركز الأرض

من يستطيع أن يقتلعنى ..
إنها تنمو .. وأنا أنمو
إنها تعيش .. وأنا أعيش
تستنشق الهواء .. وأستنشق
تشرب النهر .. حتى تمتلىء جذورى ..
ومن وسط ظلمة التربة يولد الشجر .

(تعلمت أو اعتادت أو اعتقدت أنها لابد أن تدرب صدرها على تحويش هواء الفجر والصباح المبكر الذى لابد اغتسل وتوضا وصلى قبل أن يطل .. صاحت على السمكة : « **لو عرفت كيف تصبحين جميزة مقدسة لتبدلت الخياشيم رئات . هلا يا من حرثت ورويت وأخلصت .. لك ما زرعت وأردت** » .. بعد أن شربت كل الهواء حولها ـ حسبت لنفسها على ساعتها الصغيرة

الدقـائـق التى تزيدها كل يـوم فى وسع صــدرها وقــدرته على التــحويش .. بعـد قليل لا يجد الـهواء ثقـبا ينفـذ منه إليهـا داخل العجـين حيث تتخـمر وتقرص وترص وتدخـل الفرن لتنضـج ولا تحترق أبدا .

(٢)

وهى تغادره تغادر الأشجار مواقعـها وتندفع فى أعقابها تثير عاصـفة من التراب الأسـود تتجمـع فى صدرها وتسد قـصبتـها الهوائيـة .. تهرول حتى لا يلحقـها المردة الذين كانوا أشـجارا .. طوال عمـرها تحب الخضـرة وتفزع إليـها لتطيب روحهـا وتطمئن وتـهدأ .

كيف أصـبحت الأشـجـار قضبـانا للسجيـن النائم وراءها ولها وهى تغـادره فى فـرار تتـمنى أن يكـون من وجـودها كله .. عند البوابة الخـارجية لدار الاسـتشفاء النفـسى تنتهى قدرة الصــمود ويستحيل ألا تفرغ ما لم يدخل جوفـها .. تطل عليها عيون الشبح الغائرة من مرآة سيارتها فتديرها بـعيدا عنها .. لا تنتبه أنها تقود مغمضة العـينين إلا وصيحات السيارات المندفعـة حولها تتسرب من نوافـذها المـغلقـة .. تحكم إغـلاق الزجـاج أكثـر وتسـتـسلم للاختناق فى عنق الزجاجة الضـيق عند مطلع كوبرى ٦ أكتوبر .. تحكم إغلاق عيـنيها حتى لا ترى المشــهد المتكرر لمئـات العيون الزائغة والغاضبـة والمتصارعة على الصعـود البطيء والمميت .. ولابد من حـادثة يكتمل بهـا الاختناق ويسـتعصى حـتى الزحف ولإيجاد مبرر لاشتباك مبيت ينتظر بجنون سببا يسمح بإطلاق ما فى الصدور .. وتستسلم لمـشهدها المعتاد وتغلق رأسهـا بكفيها تحسبا لانفجارها تحت الدق والضــغط الذى قد يتصاعد لنوبة من

نوبات الدوار التى فشلت جميع أنواع الحبوب فى إسكاتها أو إعادة الأرض والسماء والجدران والبشر إلى أماكنهم ما لم تنته النوبة .

حاول الطبيب أن يذهب معها إلى أبعد مدى تستطيع أن تستحضره من حفريات وجودها للعثور على نقطة البداية مع زلزالها .. حكت ما يحكى وأخفت فى الظلام ثلاثة أرباع هذا الوجود ولم تكن تريد من الطبيب أكثر من حبوب تجعلها بلهاء وتخمد مناطق اليقظة واللهفة والحرارة والصدق والرغبات والانفعالات وكل ما شقت به وتحيلها مخلوقا سلبيا مستسلما ومتجملا بالصبر العاجز .. لم تعد تصدق أن الإمساك بالعقدة النفسية ينهيها .. فقد أمسكتها وأوجعتها والتفت الأيام حول رقبتها وبدأ الخلاص الوحيد فى الاستسلام لها .

أعطت الطبيب ما يكفيه من أسباب لإصابتها بحالة متكاملة من التوتر والاكتئاب وأخذت الحبوب التى أعطتها فترات سكون وإن أسقطتها فى نوبات نوم مفزع ويقظة غائبة .. فالفت الحبوب واستسلمت للصداع ولنوبات الزلزال وتوافقت أن تتعايش معه ووجدت عندها من الأسباب ما يجعل حدوثه نتيجة طبيعية للمتوافر لديها من مقدمات .. فالبدايات الطموح انطفأت والحماس المجنون للحياة أوقعها فى وهم الحب قبل أن ينمو لها عقل تتحسس به الدنيا وتزوجته بمقاييس طفولتها المبهورة ببريق بذلته الرسمية وصارحته بكل أحلامها عن الكاتبة القادمة التى ستغير العالم وتصنع الأحلى والأجمل ولم تفهم إلا فيما بعد معنى ضحكته المجلجلة . وفيما بعد أيضا اكتشفت أنه لا يسمع إلا نفسه ولم يسمع منها كلمة واحدة وتحت عناد ألا تفشل واستسلاما للانضباط الاجتماعى ودموع وحيرة عيون صغيرة

يمزقها انفجارات الغضب حولها واصلت .. سقطت أقنعة التجمل ومسرحيات البدايات الوردية وترك منصبه الرسمى إلى موقع مالى كبير ووجاهة وصعود اجتماعى .

كان كل صعود له يكذب ويسقط نبوءة أبيها الذى كان بوصلة لا تخطىء فى حكم .. وكان موت أمها المبكر وتفرغه لها وفيض حبه وحنانه ورحمته .. وواسع قراءاته وغرقها معه فى مكتبته الصغيرة جعله كل أهلها .. ولم تنفتح ثغرة بواباتها الموصدة إلا لما دب الحب .. وهى تدعى أنها لا تعرف لماذا تريد والدة جارهم الشاب أن تلتقى به .. لأول مرة ترى أباها يصاب بحمى الغضب ويجرح أذنيها بعبارات لم تسمعها منه فى عمرها معه وهو يصف فارسها .. حاول أن يستخدم أرصدة محبته عندها .. لو طلب عينا منها ولكن ألا ترتبط به هو المستحيل .

وافق وهو أقرب إلى الرفض ولم تقم لحظة سلام بين زوجها وأبيها .. وقدر ما كان يسعدها سلامة بوصلته الهادية قدر ما تمنت أن يخطىء فى حكمه المبدئى والنهائى على زوجها .. لو لم يوافق .. لو قضم رقبتها وأخرج عينيها فقد أثبتت الأيام أنها لم تفتحهما أبدا وكل يوم كان إثباتا لصحة نبوءته .. ترك زوجها زيه الرسمى وظلت الأحكام العسكرية سارية عليها وإطلاق الرصاص على أحلامها وكل ما آمنت به لتستسلم لموقعها فى خلفية الصورة زوجة لوجيه أمثل من وجهاء المجتمع الجدد وتستمتع بالثروة وقصر الصحراء وشقق المدينة والسيارات الفاخرة وشاليهات السواحل المصرية والأوربية واليخت وملكية نادى الغوص .

أصبحت تتعامل حتى فى نفسها مع كائن آخر لا تعرفه .. كل شىء يتبدل من مواقعه .. لم يعد باقيا من الشاب القديم الذى

عرفته إلا الضحكة المجلجلة ـ وقد علا صوتها وازداد رنين فراغه بينما تتزايد قيمته وأهميته .. صعود زوجها المتلاحق يقابله تراجعها وانكسارها .

صديقة صباها التى درست السياسة والاقتصاد ..... فتاة الجامعة المثالية فى التفوق الرياضى والاجتماعى ـ والتى اختبأت داخل خباء كامل من قمة رأسها حتى أطراف قدميها ـ لا شىء ولا حتى العين يطل منها وشقت الأرض بينهما مفاهيم مختلفة عن العالم .. فى زمن الدراسة كانت صديقتها أكثر تحررا منها .. وكانت هى أكثر محافظة فى غير مبالغة .. كانتا تنتميان للطبقةالمتوسطة الحافظة للقيم الصانعة لمكانتها بالتعليم والعمل والتى تطرح أوراقها الخضراء فوق إيمانية وسطية مضيئة بجلال الخشوع وطمأنينة الإيمان والقيم والالتزام ـ كيف تبادلتا المواقع واتسعت هوة الفكر والرؤية بينهما ـ فى خطاب من الخطابات الأخيرة وقبل أن يتسع الشق بينهما كتبت لها :

« فى البورصة الجديدة للبشر .. كل ما تربينا وعشنا عليه يتساقط .. هو يصعد ويتعاظم وينتشر وتتضاعف الأصفار إلى يمين أرقامه ونفوذه وسطوته ورجاله .. أشياء أخرى كثيرة .. الأكاذيب لا تنتهى فى زمن الشفافية .. يصعد هو ولا يكف عن الصعود وأنا أتراجع كسيول منحدرة من أعلى الجبل » .

لم يعترف لها أبوها أبدا أن تعاستها وتجديفها ضد التيار لا يختلف عما حدث له فى عمله وقدر ما حاولت أن تخفى آلامها بعيدا عنه كانت تقرأ فى عينيه وقائع أيامها التى لم يبق لها إلا بارقة أمل بعيد أن تنجو من الغرق بولديها ـ وقبل أن يغيب أبوها وراء حاجز الصمت حاولت أن تسترده باستعادة بقايا ذكريات أيام حلوة معه ودعابتهما لا تكف للدنيا ولهما .. قالت له إنها

تمنت مـرة واحدة .. واحـدة فقط على الله أن تضـبط زوجهـا فى حالة تسمح لها بإثبات خطأ نبوءة أبيها .. الضحك مذبوح بالألم .. منقوع فى المـرارة .. حتى هذا لم يعد يسـتطيعه .. أشاح بوجـهه بعيدا وقال :

ـ دعينا لا نقلب المواجع .. وتشبثى بنفسك وأولادك

كانت تكمل لنفسها ما أشاح بوجهه حتى لا تسترسل فى قراءة صمـته .. وكان الطلاق طريـقا مسـدودا ـ زوجها لا يريد خدشا للمواصفات الاجـتماعية فهـو من عائلة إذا أغلق الباب على الرجل وزوجته ارتـبطا ارتباطا أبديا كالموت والمـيلاد .. وأفلت نداء من المخزون المتراكم :

ـ حتى لو وراء الباب المغلق تنقطع كل الصلات !

يبـدو أن كل البعـيد عن الواجـهات مـمكنا .. وانضمت أوجـاع جسدها إلى أوجاع روحها وبقى الاعـتبار الأول فى التصالح معه ومع الخلل فـى ألا يطول ولديهـا أكـثـر مـمـا طـالهـمـا من آثار الانفجارات المتواصلة بينهما ـ وظلت مـحاكم التفتيش كما أسمت محاولاته للتدخل فيما تكتب والتقليب فى ثنايا عقلها حتى لا تمس به اعتباراته الأمنيـة ومصالحه المالية وعلاقـاته بالبنوك واشتعل الصراع بينهما ومـزق البقية من خيوط العنكبـوت التى ترتبطهما وانفجـر السقوط تـحت أعين الولدين وتشبـثت بأمل إنقاذ أخـير بالعودة إلى عـملها . واختـارت سلسلة من التحقـيقات النفسـية وأخضعت ضـحك التسعينات للتحليل .. قـادتها الدراسة إلى نوع مستحدث يصاحب رفع الرايات والاستسـلام وتطرقت بتحقيقاتها إلى الأحلام فاكتشـفت أن الناس لم تعد تحلم .. أو لم تعد تنام أو تنام فى الليل والنـهار فلم تعـد تفـرق بين رؤى الليل وكـوابيس النهار وخططت لسلسلة من الحوارات تفـحص بها تراجيديا واقع

تحس أنه تجاوز مساحات الخيال وكل ما عثر عليه الفن من نماذج بدت له خارقة للعقل والإحساس .

في مذكراتها سجلت اللقاءات :

● سعيت للقاء أستاذ الجامعة الذى كون عصابة السرقة زملائه والطلبة الذين يدرس لهم وقدرت قيمة مسروقاته بملايين الجنيهات ـ لا أحد كان يصدق حتى تم الكشف .. قال إنه أراد أن يعرف التركيبة النفسية للناس الذين يسكنون هذه اللحظة الملعونة من الزمن ـ قرر أن يتقمص أبطاله وينزل داخل نفوسهم ويقرأ المكتوب على جدرانها الداخلية .. استنجدت بكوب ماء على مائدة أمامى لأقاوم الجفاف والتحاريق التى اشتعلت فى جوفى وصلت يده إليها قبلى بضربة طيرتها فى الهواء وكادت تطيرنى .. لم أفهم كلمة من هذيانه .. قيدوه ورفعوه من الحجرة .

● فى سجن النساء ـ على طريقة تهريب المخدرات سربوا لى الخبر ـ فى زنزانة النجوم الخمسة تنزل نسوة لهن تاريخ قادم ـ كلما أنجزت واحدة صفقة تدخل للاستجمام حتى يتم اللازم من غسيل للأحداث والمال والجفاف والجمع والطى والإخفاء .. من أسمائهن المستعارة هدى وصوفيا وسمية ومنى ـ السيدة كوامل حالة لها هواية خاصة جدا أن تصنع الأسمنت من السكر وأسياخ الحديد من عروق الحلاوة الحمراء ثم لوسى .

عشقت دراسة الأساطير فى قسم التاريخ ـ لم اختر قسما غيره فى بطاقة الرغبات ـ كان التاريخ الفرعونى جنونى تليه أساطير الشعوب . وامرأة السجن أمامى فى بيجامتها الحريرية اكتشفت لأول مرة أن الأساطير ليست خلاصة لخيالات وأحلام الشعوب وأن هناك بالفعل سلالة للبنت التى ولدت من رحم اللؤلؤ . لم تكمل الثلاثين ـ وقالوا إن ثروتها تجاوزت المليار ـ

وفى صالونها الفاخر تدير مملكة من العلاقات وتحرك بأطراف أصابعها خيوط مجموعة من الشخصيات الهامة وتعقد بالإنابة عن كبار صفقات سلاح وأحجار كريمة ـ أظنهم قالوا ـ وغيرها أشياء كثيرة ـ على أدق أجهزة الكومبيوتر تتابع بورصات العالم وتتميز لياليها فى قصرها النيلى بمجموعة مختارة من الرواد .. قالت: إن الصــراع بين البراكـودا هو الذى أوقـعهـا ـ وأنها تستجم حـتى يتفاهم البراكودا مع بعـضه ـ وهى لا تعرف إلا البراكودا الطيب ـ هل مازالـت البراكودا نوعـا من الأسمـاك المتـوحشـة ـ لا أعرف فمعـانى الأشياء كلها يتـبدل حولى .. تبينت أننى لا احـتاج أسئلة أوجهها إليها ـ فهى لا تتوقف عن الحكى ـ وعرفت أنها مثل الماما امرأة اجتـماعية كـانت تقصد السـيدة والدتها اليونانيـة أظن أنها وصفتها بأنها كانت امرأة اجتماعية ـ ولما لاحظت دهشتى أرادت أن تسـاعدنى وأوضـحت أن الحـياة عـندها وعند المـاما بسـيطة وجميلة ولينة ـ لا تعـرف من أين يأتى الناس بالكومبلكس ـ لابد تقصد العقد النفســية ـ ولابد أن الجميلة تقدر على أى شىء حتى قراءتى من أطراف أقـدامى حتى خصل شعـرى القصير الخـفيف المبتل دائما بعرق عصبيتى واضطرابى ولابد شاهدتنى أغرق فى آبار الكومبلـكس .. تذكرت أهلى الطيبـين .. اكتـشفت متـأخرا أن تعاليـمهم أصبـحت عقدا نفسـية فى نظر هذا الزمان .. سـرحاتى الطويلة جعلت حكيها يصلنى كالكلمات المـتقاطعة ـ لما عدت إليها كانت تتحدث عن جـدج ـ لابد أنه القاضى ولابد أنها بنت الحدوتة التى ضربته على وجهه لمـا امتلأ بالذباب ـ لما ألحت على فى أن أطلب شيئا تكون نفسى فـيه أو آكل من الحلوى الفاخرة التى تملأ المنضدة بيننا التفت إلى المرأة التى تقوم عـلى خدمتها ـ أظن أنها كانت السجانة وطلبت فنجان قـهوة تركى سادة ـ فقد تعودت أن

أشربه على روحى كلما اكتشـفت جديدا من عجزى عن الفهم ـ لا أعرف لماذا ظننت أني قادمة أطلب وساطة وأعطتنى بطاقة توصية ـ لم أجـد ريقا ابتلعـه لما سـمعت اسم الصـديق الفريمـون الذى استطيع أن اذهب إليه .

ابنة اللؤلؤ وهى تناول من فـمهـا فمـه ـ الفهـد الصغـير الذى لا يستطيع أن يعيش بعـيدا عنها ـ اكتشفت نوعـا من المخلوقات يتنفس رغم تصفية دمائه، خلت كل عروقى منها. اكتشفت أن قلب الجميلة لا يحتمل رؤيته مقيدا.

خافت أن تختنق فى المـصعـد .. بحثت عن السلم وجـدت أنه يصعد ولا يهبط أبدا وأن سلمـاته غادرت الحائط وبدأت تطير فى الهـواء .. بحثت عن شىء تسـتند إليه وتتـشبث به اكـتشـفت أن سلماته وجـدرانه لها شكل الرخام وملمسـها من طين يرتـج .. وتضـيق الممـرات وتصبح خطواتهـا تتقـدم إلى الوراء فى بطون لزجة لثعابين تلتف عليها وتعتصرها .. ولابد أن تفرغ ما لم يدخل جوفها وتفصد عرقها إلى أن تبدأ فى استرداد وعى خائر وتصعد بالتدريـج جوفا أملس لبئر بلا قرار .. ساندوها لتخرج من الحفرة التى وقـعت فيهـا .. اعتـادت زلزالها وأصـبحت تخاف أن يـغيب فيجهز عليها الوعى بما يحدث حولها .

(٣)

الحنين إلى المـاضـى .. هل ينقذها .. عـشقـها القديم للـتاريـخ وتفوقهـا فيه .. هل استعـادته لتتماسك وتقاوم ... تذكـرت حلمها القـديم فى أن تعيش وأن تعـمل وسط الآثار .. وفى اهتمـامـاتـها الصحفـية المبكرة وفى رصدها لما خـرج ولم يعد من قطع نادرة

ولما عاد مــقلدا ـ وفى تحقيقاتهـا وزياراتها ـ وفى بعض الصور الصحـفيـة التى يلتقطهـا زملاؤها المـصورون كـان صاحب هذا الوجه كـأنه أثر من لحم ودم ـ وأحـيانا يبـدو كما الرسم الـخفى الذى لا يظهر فى العملة الورقية إلا إذا رفعت للضوء ودائما يظهر فى يديه أوراق كـأنه يجرى مـقـارنات أو يجمع أشـياء من فـوق الأحجـار .. أصبح يـقينا عندها أن هذه المـلامح رأتها من قـبل .. فسـرت اليـقين بمـا تؤمن به من قوى روحـية للفـراعنة وأن هذا الشبح الـبشرى إمـا روح حارسـة تتخفى فى رداء مـن زماننا لا يتبـدل على الاطلاق أو روح سرق مـومياها فـغادت تبـحث عنها فالرأس الأسـمر حاد القسمات البارزة اشـتعل فيـه الشيب ـ بل كثير من المومياوات لديها مـن علامات الحياة أكثر منه وإن كانت طاقة الحركة وقوة الظهـور والاختفاء لا تدل على وهن .. وفى كل مـرة تنبهـت إلى وجوده وعـثـرت على طرف خيط يـقودها إليـه وسعت إلى لـقائه يختـفى بالسرعـة التى يظـهر بهـا ويسـتحيل تحديد الاتجـاه الذى ذاب فيه . وظل طيفـا يلوح فى أطراف صور تلتـقط فى المناطق الأثرية ـ بالذات تلـك البعـيـدة عن الضجـيج والاهتـمام .. أصـبح اعتـيادا عندها أن تـبحث عن نقطة باهتـة أو ضـائعـة .. وبات يقينا أن خداعـها البـصرى والنفسى طبع خـيالا للصورة فوق حدقة عينيها .

آخر مـا توقعته أن تجـده بطلا لحادث على الصفـحات الأولى وقعت الواقعة ونشرت تفاصيلها فى جميع الصحف أثناء اكتشاف خبيئة مـعبد الأقصر .. قبضت السلطات على مـجهول يحاول سد الحـفرة التى بدأ منهـا الكشف ـ دلت التحـريات أنه مدرس قـديم للتاريـخ . قال إنه استبعد من التدريس بعد أن تسلطت عليه أوهام التكليف بمـهمة رسـميـة لحماية الآثـار وأظهرت التحـقيـقات أنه

مصاب باضطراب عـقلى فقد ظل يهذى وهو يهـيل التراب ويقاوم إنجاز الكشف التـاريخى وإخراج مجـموعة التـماثيل النادرة التى ظهرت عندما ارتفعت المياه الجوفـية ومالت الأعمدة: البعض ممن شاهدوا واقعة المقاومة حكوا أنهم سمعوه يقول إن الأوان لم يأت بعد وأن الخبيئة يجب أن تبـقى مدفونة حتى تزول الغمة وتكشف الكاشفة ويطلع النهار.. قالوا إن كلمـاته المضطربة امتلأت بما لم يفهمـوه وخيل إليهم أنه كان يحكى عن ست المـتخفى تحت اسم سنوحى الذى سيأخـذ نصيبه من الخبيئـة ويحمله على ظهره فى الليل ويعبر النيل إلى الشمال وداخل الأقنعة يعبرون البحر .

مفتشة الآثار الأقصرية المبعدة عن العمل إلى بقايا أثر مهجور بالبر الغـربى ، سرقت جمـيع محتـوياته ولكنها تعـتز بأن ترعى حتى الجدران المتهدمة الباقية حكت لها إنه كان يتحدث عن برابى جـديدة يجب أن يرفـعوها فى كـل مكان لصد الطـوفان القـادم.. شرحت لها حارســة الآثار أن البربا كلمة قبطية معـناها المعبد .. وهما تـسيران إلى جـانب النهر أشـارت إلى معـبد الأقصـر على الطرف المقابل وقالت: « قـالوا إن الأعظم بين كل ما بنى الفراعنة من برابى ـ وأشهرها الأقصـر والكرنك وأبو سمبل ودندرة ـ كان بربا أخميم .. ووصـفها الأندلسى « وهى من عجائب الدنيـا مبنية بالصخر المنحوت لها أربعة أبواب من أى باب خرج يجد بيتا مثله وهى آلاف من البـيـوت المظلمـة لا تدخلهـا شمـس ولا قمـر ولا يصلهـا الضـوء إلا من البـاب الذى دخل منـه ، فكانوا يدخلونهـا وبأيديهم السرج والشموع يوقدونهـا فى رائعة النهار ويصعدون فى مـواضع حيطانهـا درجات كـالسلم فيـصلون إلى بيـوت أخر كالغرف فوق هذه الـبيوت على قدها وهيئتهـا وقصدها الأغلب أن يحـفظ فـيها كل مـا يخـشى عليـه الضـيـاع والهـلاك وتنوعت

المـحـفوظـات فشـملت العـلوم والفنون والصنائع والكثـيـر من الحاجات الدينية والدنيوية » .

وواصلت حـارسة الأثر التـى تحولت إلى عـاشـقة له تضـوى سـمرتهـا ولهجـتـها الجنوبيـة بحـلاوة الوصل والذوبان : « فى دراستنا عرفنا أنه كان الهدف من بناء البرابى الاستعداد لمواجهة ما لا بد سيأتى من طوفان عندمـا تمرض الأرض وتعتل ويمتلئ وجهها بالبـثور ويسيل القيح فيأتى الطوفـان ليغسل ويطهر وهو إما نار تحـرق أو ماء يغرق أو زلزال يـشق الأرض إذا ورم بطنها ببخار الـوجع .. وقسموا البرابى إلـى قسمين قسم لحـفظ خزين يكفى لإطعام الـمدينة لسنوات حتى يهـدأ الطوفان .. بينمـا القسم الثـانى من المعـابد يحفـظ فيـه ما أبدعـوه من فكر وفن وأوراق وكـتـابات وتاريـخ وتمـاثيل لتـصل إلى أحـفـادهم ويتـعلمـون ويعرفون ويعملون ويواصلون » .

بعـد أن عـبـرت بنا المـعـدية إلى وادى الملوك بالبـر الغـربى وقطعنا مشوارا طويلا لنصل إلى مكان عملهـا فى أثرها المهجور أشارت إلى بعيد وقالت إنها لم تشـاهد الأستاذ كما كانوا ينادونه هناك إلا متـأخرا لما جـاءت هنا وعرفت أنه معـروف لأهل القرية ومحبوب بينهم وكان ضيفا على كبـيرهم وإنها عندما سمعته مرة يتحدث انبـهرت بفكره. كان كما وصـفته أعقل من سـمـعته يتكلم ويعنى ما يقـول ويقصد المـعنى فى دعوته لإنشـاء برابى جديدة فهـو يريد إقامـة القلاع والحـصون داخل نـفوس البشـر ووسط تجمعات الشباب والبنائين ليزداد ويقوى الحفظة .

فى توالى النشر عن حـادثة القبض عليه والتـقرير الطبى الذى طلبته جهات التحقيق عن حالتـه العقلية والنفسية قرأت أن أسرته وعدت بإبعاده عن مناطق الآثار وإخضاعه للعلاج . واحتفظت هى

بالسطور المبتورة وأكملت المعاني والكلمات الناقصة فالاضطراب العقلي أصبح ظاهرة واسعة الانتشار وتفسيرا مريحا لكل ما لا يريدون تفسيره الحقيقي ونهاية تغلق بها ملفات القصص التي يبدو فتحها مثيرا للمشكلات . ولم تستطع أن تهتدي إليه في أكثر من عنوان قالوا إنها تستطيع العثور عليه فيهم .. ومثل قصص وبشر وأفكار كثيرة محالة إلى الزمن الأفضل القادم أحالت ما جمعته من أوراق إلى ملف يحفظها من الضياع لتستدير إلى ولدها الكبير وهو يزداد كل يوم انفلاتا .. يطلق عليه أبوه ببالغ الزهو رجولة ويقهقه طربا بأن الولد يثبت أنه سر أبيه في فهم زمانه والتخطيط لاختصاره واقتناصه والقفز فوق أكتاف امكانات أبيه لما يريد ..

تحول إلى شبح ليلي لا يصحو إلا عند اقترابه ولا يعود إلا عند الفجر - يكتسب بالتدريج هزال الأشباح .. يزلزلها فزع الانتظار اليومي والهواجس تطاردها بكل ما على الأرض من مخاوف .. الولدان وكأنهما أخليا من الأعمدة الفقرية وكل ما يريدان مباح لهما .. في فراغ صدرها حيث عشش الهلع وأفرخ غربانا تنعق بثقل وجعها ورنين ضحكات الولدين أيام كان حضنها ملعبهما .. يوم في الزمن البعيد خططت ليبدأ الزرع في أرضهما مبكرا وصراعها مع الاكتشافات المتوالية منذ أن كان عليها أن تصدق أن من توهمت غير من تزوجت وبرقيات الأيام المنذرة إنه زمان غير الذي تربت وأمنت وتفهم ..

وقتالها لتبقى لولديها بيتا من لحم ودم وفزعها لتبقى لنفسها البنت التي كانت يوما تريد أن تكون شجرة وحادث التصادم الذي لا يكف عن سحق عقلها وعظامها .. هذا الوسع بداخلها يسع الدنيا والواقع يضيق بها وعليها وأحلام النجاح في العمل مطاردة

وكتـابة رواية جديدة تنتظر أن تنجـز مهمة أمـومتهـا. وأمومتـها تنفـرط وملفـات مشـروعاتـها للكتـابة تمـتلىء بالأوراق المـيتـة والشواهد تخلو ومعاناة الواقع حولها تبعث الخجل فيها من عذابها وتجـعل موتهـا متـواضعـا إلى الموت حـولها .. تصـدع روحـهـا بهاجس ضياع الولدين بدا مبكرا والفرحة بميلادهما سرقتها رغبة مـجنونة فى أن تعـيدهمـا إلى أعـماقـها ليـولدا فى مكان وزمـان تستطيع أن تمـنحهمـا فيه الدفء والأمـان وتحقق ما حلمت لهـما ولها وللحياة .. ولا تكف عن القتال اليومى بوهم امكانية الاقتراب من الحلم . وانـضم إلى الجـفـاف المـبكر للحب وللبن صـدرها تحاريق الأيام ـ أعـلنت الفصول الأربعـة صيفـا حارقـا ـ العرايا يملأون الشوارع .. التفرقة صعـبة بين عرايا الجوع وعرايا أحدث الصرعات ـ مـا لا تخطئه العين ملابس تؤكـد انتشار جنس ثالث لا هو من الرجال ولا مـن النساء : « **لم تكن لى عـلاقة جنسـية مع صبى** » جعلت الولدين يحـفظانها ويفهمان مـعناها من خلال المأثورات القـديمة التى كانت تلجـأ إليها لتـربى وتربط بالجذور مجموعـة اللامات التى حفظتها عن ظهر قلب .. كـانت تكتبها على ظهور كـراساتهم وترسم بجـانبها عـملية وزن قلب المـيت حيث يضع أنوبيس قلبه فى كـفة ميزان وأمـامها ريشة لتـحكم على ما فعله فى دنياه والثواب الذى ناله ـ ومن يمر بهذا الاختبار يمر إلى النور والخلود .

فى محاولاتهـا المخطوفة من زمانها المـثقل بالألم ومن إفلات نادر من شللها النفسى حلمت أن تثمر وتشد ظهريهما وهى تضع الطعام لهما كانا على توقـيع الملاعق والسكاكين والشوك يرددان اللامات معها ـ **لم اقترف شرا ضد الناس .. لم أسىء معاملة لم اقتـرف معـصيـة فى مكان الصدق لم أسب الإله لـم أفعل أذى**

ضد فقيـر لم أشوه سمعة مرءوس عند رئيسه ـ لم اجعل أى فـرد مشـمـئزا ـ لم اقـتل ـ لم أدنس نفـسـى ـ لم ازد أو انقص مقياس الحبوب ـ لم الوث المياه ـ ولم أوقف المياه الجارية ـ لم تكن لى علاقـة جنسيـة مع صبى . حكت لهـما كيـف كادت اللام الأخيرة أن تاتى لها بمصيبـة ومدرس التاريـخ يثقب وجهها بعينيـه وهى ترفـع إصبعهـا بعد طول تردد لتقول إنهـا لا تفهم ـ لا تعرف ما حدث بعدها ومازالت لا تعرف ولكن مازال ثقب عينيه محفورا فى رأسها .

عيناه .. ماذا يجدد وصلها بهما كلما ازدادت خلخلات روحها.

تستعـيد الذكريات لتضع ثلجا فـوق الأحداث .. الولدان يعدان أوراقهـما ليـقفزا الثـانوية العامـة بعيـدا عن مصر .. ثـم يكملان تعليمهما هناك .. أو لا يكمـلان .. الأب والزمن والمتاح لهما اتسع على كل ما توهمته ضرورة لـصناعة الرجال .. خرجت الأمور من إرادتها وإدارتها والمقاومة خائبة وخاسرة . الرجفة تدب من بعيد وتعلن إنذارات نوبة من زلزالها .

(٤)

أصبحت الشمس تشـرق من الغرب .. يجب أن تصدق .. كل ما عاشت وفـهمتـه يتبدل ـ الفـرار من روحهـا المختنقـة مستـحيل والذهاب إلى أبيها هو الموت بعينـه .. غيابها عنه يطول .. بعد كل زيارة له تحتاج إلى مـواسم استشفـاء لتملك شجاعة احـتمال أن تراه مرة أخـرى .. دخل فى حالة كاملة من الصمت وامـتنع حتى عن نوبات الضـحك والكلام التى كـان يتعـرض لهـا على فتـرات ويسترد فيها طبيعتـه المرحة وروحه الساخرة ويطلق عليها بقايا

ما عاش يحببه من دعابات وآخرها ضحكة عليها لأنها ورثت منه الجدية والمثالية . كانوا قد أثبتوا عليه الرشوة ليجبروه على الاستقالة وحبكوا أطراف الجريمة وأقاموا الأدلة وجاءوا بالشهود كانوا من تلامذته الذين دربهم وأعطاهم خبرة عمره .. لما بدأ المرحلة المتأخرة لغياب العقل كان يهذى بما دبروه على أنها أفعال مؤكدة وأنهم أدرى بما فعل . والمؤكد أنه كذب ولا يعرف أو كذب وهو يعرف .. قبل المرحلة المتأخرة وفى زياراتها له فى المصحة النفسية وفى محاولاتها المستميتة لإخراجه من صمته الذى صنع منه جدارا سميكا واختبأ وراءه كانت تنتابه نوبات حكى عن كل ما كان يعرفه عنهم من انحرافات .. كان يصدق أن الإعلان عن واحدة منها كفيل بإخفائهم من فوق سطح الأرض .. هدد وحذر .. قرروا أن يكنسوا وينظفوا طرقهم .. اشتداد الحالة عليه أخذه إلى محاولة إيلام النفس وأفلت من الرقابة الدقيقة ودق رأسه فى الحائط وشجها ومن وراء الضمادات و فى نوبة يقظة عالية يومها كان يتأرجح للأمام وللخلف على مقعده الهزاز وجانب وجهه يغيب فى قرص الغروب الأحمر ويصنع سلويت أسود بالغ الشموخ والشجن ـ احتضنته بروحها وألقت على صدره رأس البنت التى تاهت منه ومنها ومازال المنادى يجوب حارات وأزقة الأيام بحثا عنها

قال لها : شج الرأس جزاء عدل لمن ترك اللصوص يسرقون زمانه وشرفه وعقله .. وبعدها كالمعتاد ينهار فى نوبة ضحك ساخر لابد أن تنتهى بالبكاء وعلى قدر ما تعذبت بغياب وعيه كانت دموعه مذبحة لروحها حتى وجدت فى غياب الوعى راحة له من جحيم التذكر .. كانت قد غابت عنه طويلا فرارا من العذاب الذى تذهب به ونوبات الرغبة الحاوة فى الموت التى تغادره بها

تتمنى أن يكون الفرار من نفسهـا .. التجديف بلا منتهى فى فرار بين الزرع الأسود تـطاردها المردة التى لهـا طول وحجم رءوس الأشجار الثقيلة وزحف نوبة الزلزال ..

لأول مـرة تهـاجمـهـا نوبة قـبل زيارة ـ قـاومت الفـرار إلى الخـروج.. توجست حـولها أشـياء تحـدث لأول مرة .. يبدو أنـها غابت طـويلا فى سفـرتها إلى الأقـصر رلمـ قـلبوا الأرض عليـها جاءوا بزوجها ومضوا فى استعدادات الدفن ..

تساندت إلى صديقـته وصديقتهـا الطبيبة التى تحتـفظ بجمال طفولتها رغـم أنها تجاوزت الستينات ـ كانت مـشدودة إليه دائما بمشاعـر دافئة وجعلت لرعايته خـصوصية جعلت المصـحة كلها تعقد بينهما صلة قربى ..

حكت لها أنه أخذ حمامه وحلق ذقنه ولم يكن يوما أجمل وأهدأ ممـا كان ولا رؤيتـه أكثر وضـوحا لأدق تفـاصيل مـا حدث له ـ وعلى هزات مـقـعـده الذى لم يأت بغـبره من البيـت مع كتـبه وشـرائطه قـال إنه عندمـا لم يقـف ويشـتـد وتراجع ادخلوه فى الحائط وأجـهزوا عليه ـ أعاد ترتيب كـتبه وأخرج شـريط الشيخ سيد وأخـذ يدندن معه زوروني كل سنة مرة ـ ظنت أنـها لم تعد إلا أيام ويشـفى ويغـادر نهائيـا .. طلب منى أن أطمـئنك عليـه .. الاطمئنان عليك آخر مـا تمناه ورسالته الأخيرة التى أعـادها أكثر من مـرة ـ إنه لمـا لم يقف ويشـتـد وتراجع أدخلوه فى الحـائط وأجهزوا عليه أظن أنه أغلق عينـيه بعدها وظل يدندن حتى أصبح له صـوت الشـيخ سـيـد درويش وحـده فى شـريطه الذى يدور بجانبه .

تـحققت لهـا مشاعر راحـة مسروقة لم تحصل عـليها من ألف عام .. احـتفظت بمقـعده الهزاز الذى كـان يحلو له أن يقرأ فـوقه

وعلى إيقـاعات اهـتزازات خـفيـفـة يرقب الغروب ويـغنى لسيـد درويش وقديم عـبد الوهاب .. وخـبأته تحت شـجرة من أشـجار روحها وظلت تقـدم له الرعاية التى لم تقدمهـا له وهو يقع ويقوم وهى تائهة بين شواهد الموت ترتفع حولها..

على واحـد منها كـتبت اسمـها وزواجـها الذى لم تسـتطع أن تتذكـر له تاريخا وعلى الثـانى كتبـت عناوين ملفات تحقـيقـاتها الصحفيـة ومشروعاتها المؤجلة دائما وأسـماء قصص وإشارات إلى نماذج إنسانية قـد تغذى بها يوما أعمالهـا بعد أن أصبح فعل الكتابة يمـوت بين يديها .. شللهـا النفسى يسارع تسلط زوجـها حـتى لا تكتب خرفـهـا الذى قد يسىء لمكـانته .. بعـد أن انقطع بينهمـا كل شىء لم يبق إلا خيـوط الصراع واسـتبسـالها لتـبقى بجانب الولدين وأمومـتها المريضة بهما وعـناد وأشواق لا تخمد لانتصار الحلم رغم توالى الانكسـار .. ومضات الأمل تمثل أطواق نجاة .. ذلك الاستـقبال الحار لعملهـا الأدبى الأول من ملف أيامها وأوراقها الحبلى بما اختزنت وبدفقـة الصدق وحرارة كي الوجع كتبت .. وهى تحاول تجربة جـديدة كان الطوفان يعلو وما عاشت عليه يتبدل وما استطاعتـه من قبل تفقد القدرة عليه والكتابة التى كانت فرحـة وجبرا للروح وإطلاقا للذات وضـرورة لتوازن الحلم والواقع تبـدو عبئـا ثقيـلا على عقلهـا المنهك وأجنته تخـتنق فى رحمه حـتى أصبح الميلاد العقلى مسـتحيلا مثل مواليـد جسدها التى كانت تشتاقها حبا واتصالا حقيقيا بالوجود حتى لم يتبق من أحلامها المتوحشـة برغبة الحياة والحب والعمل والنجاح شىء .. لم تعـد تتنفس إلا رائحة القـهر والعـجز والفـشل ـ تشبـثت ولو بجزرة حمـار تشدها . أحبت الصورة وهى صبيـة ابتدائى تجرى تمـريناتها الأولـى فى القراءة والكتـابة بمـهارة ومـوضـوعاتهـا

للتعبير تثير إعجاب ودهشة معلمتها أمينة وهى تقول إنها تريد أن تكون شجرة لـها فروع وأوراق تظلل وثمر يؤكل وعـصير يروى وخشب يؤوى ويصنع أوراقا وأقـلاما وكتبا وصمغـا يلصق فيها كل ما تحب ـ دوى لها تصفيق الفصل أكثر من مرة .

كان يربكهـا التصفيق ولكن التقـدير يستعيـد ثقتها المـفقودة ويطلق فرحة قلبها الذى كسره رحيل أمها المبكر ووحدتها الثقيلة وغيبات أبيها الطويلة .. الصمت والوحدة رفيقا طفولتها لا يملأهما إلا صداقة الأقلام والأوراق .. ووسط القصص التى قرأت وأحبت وتخـيلت ظلت جزرة الحـمار الأخب ـ لمـا كبـرت فهمـت حلاوة الحيـاة عندما تندفع وراء الحب والنجاح ووسط ضبـاب البدايات ونقص الوعى احتاجت إلى وقت طويل لتدرك أنهـا تركت حياتها تندفع عكس كل ما أحبته وحلمت به ..

المد يرتفع والطوفـان يغرق روحهـا ويجتاح أرضـها وثناياها وعقلـها يتصـدع هل يلحق بمـا أصاب عقل أبـيها .. الخـوف منه والخوف عليه ورغبة احتضانه والفرار منه .. الجنون يصيب حتى دوارها وانحســار إرادتها ومـا أرادت ولم يتحـقق يفسـر شواهد الموت التى تكثر حولها وارتفع شاهد جديد على قبر أبيها .

تثق أنه يستطيع أن يسمـعها بعد أن تحرر من آلامه أكـثر مما كان يستطيع وهو يمـوت أمامها كل يوم بالقهـر والخذلان ـ وبعد أن ينجـز المـقـرىء قراءة الخـمـيس ليلحق بمـدفن آخر لابد أن يتحسس وجه الفطائر ويمص أصابعـه ليصدق أن الرحمة عندهم مغطاة بالسكر .. اقـسمت أن توالى إمداد أبيها بـكل ما أحب حتى الكعك بقوام متماسك أحمر اشتـدت عليه نار الفرن مشربا ببياض السكر وكان يصفهـا بوجه امرأة حلوة تضحك له ولا يمل الحكى عن حـلاوة وجه أمـهـا وأنهـا ورثت بعض عسله لولا .. ويقطع

الكلام ـ وكـانت تعرف مـا يقطعه ـ لولا التـعاسـة وانقطاع الحب والأمن وكل الحيل والجزر الذى يشد سـفينة الروح لمرسى تأمن فيـه العواصف والنوات مهـما ارتفعت وكانـت قد أصبحت جـبالا والزمن يتبدل وجميع المعلن فى حيـاتها مثله مثل زمانه لا علاقة له بحقائق الأشـياء ونبوءات أبيها لا تكف عن إثبات صـحتها منذ قال لهـا عندما يأتى أوان النضج وتسقط عـيونك وبقيـة حواسك اللبنية ستـبكين بدلا من الدموع.. ثم تأخذه رحمـته بها ولا يكمل وكعـادته يشيح بوجـهه بعيـدا حتى لا تقـرأ الأكثر وهـى تهدهد حنينها إليه بمحاولة من محـاولات الضحك القديمة معه قالت له ـ ولكنك تحمـل قدرا كبـيرا من إطالة عمـر الحواس اللبنيـة وطفولة الوعى يربت كتفها ويقول جملتـه الدائمة «ماقدر كان وما كان منا لم يكن على قدر الشدائد» ـ جـغرافيا الطرق المعتـادة تضيع منها دائمـا ـ كان طريق المدافن منذ جـاءته لأول مـرة وراء أبيهـا .. وانتظمت فى الزيارة تضيع فيـه كل مرة .. تأكدت أنها فى الأغلب تأخذ الطريق الذى تعرف أنه لا يمكن أن يكون إلى الخروج .

(٥)

وقـبلات الولدين يوقـعانهـا فـوق وجه جليـدى فقـدت تمامـا الاحـسـاس به ويـغـيـبـان فى الطائرة وراء الأب والـسلم ينزع والطائرة ترتفع تأكدت أنه ما بقى فيها من طاقة للحياة يتسرب .. والعـمـر .. والولد .. والحب .. والزوج .. والـعـمل .. لم يبق شئ اسـتطاعت أن تلحق به ليكون كـمـا حلمت أو فعـلت .. كانت قـد صـرفت السـيارة الـشبح الفـارهة التـى جاءت بهـا الأسـرة فى مشهدها الاجـتماعى الفاخر ـ وكانت طلبت أن تلحق بهـا سيارتها الصغـيرة لتعـود بها وحدها .. كـانت من بقايا قليلة صـمدت من

زمن الحلم والبدايات .. وداخلهـا تستطيع أن تكون هى وأن تغلق نوافذها وتطلـق آهاتها وتسمع صـيحات الطفلـين وهما يتقـزفان حولها وتبـادلهما الشقاوة والدعابات وتصل الحـوارات المقطوعة وتخطط لتبقى تـفتحهما ونضـجهما فى حضـن بلدهما .. لماذا لم تستطع شيئا واحـدا .. هى أو الزمن .. أين كان الخطأ . كلما فرت بعيدا عن المطار ازداد صوت الإقلاع اقـترابا .. ملأ السيارة حتى خافت أن تنفـجر بقوة دويه .. فعلت المـستحيل لتـجمع شظاياها وتسيطر على عجلة القيادة ـ ضباب فجر سبتمبر يحجب الرؤية ـ بالكاد تلتـقط تناثر صـوت مذيع قـادم من وراء البحـار .. إرهاب الفلسطينيـين يهـدد أمن إسرائـيل ويجهض اتفـاقـيات السـلام.. العراق يســتقبل فـريق تفتيش جـديدا .. دفعات جـديدة من أطفال البوسنة تضيع فى أوربا .. تصاعد أرقام اغتصاب النساء وبيعهن فى أسواق النخاسة الجديدة ..

أمريكى يطلق الرصاص من نافـذة بيته فيقتل ويصـيب جميع المارة .. كلينتون يحصل للشواذ على حقهم فى التجنيد .. تلاشى صوت المذيع وسط أصوات انفجارات .. زلزالها لم تسمع لمقدمه من قبل مثل هذا الدوى .. فعلت المستحيل لتواصل سيطرتها على وعيـها وعلى السيـارة .. سمح لها قـدر من انقشاع الضـباب أن تتـبـين أنه ليس زلزالهـا ولكن يحـدث على النهـر الآخـر للطريق مطاردات ورصاص ومدافع رشاشة لابد أنهـا مواجهة أخرى بين الشرطة وجماعة من الإرهابيين .

الفاتحـة التى سمعت روحهـا ترتلها لا إراديا كما اعـتادت لابد كانت للأموات من سـكان جانبى الطريق حولـها .. شـواهد المقابر أكدت لهـا أنها كـانت تأخذ طريق العـودة من المطار عبـر الإمام الشـافعى .. إلى أين أخـذتهـا الطرق الجـانبيـة التى فـرت إليهـا وتعرجت مع حـاراتها الضيقـة الدائرة حول بعضهـا .. هل أخذت

الطريق العكسى عندما أحست بالمطاردة تنتقل إلى النهر الذى تجرى فيه سيارتها ومن أين جاءت هذه القباب والتلال .. وانشقت الأرض عن سد هائل أو جبل شاهق يجذبها .. بمغناطيس إليه .. تغادرها عيناها .. الجبل يدخل مكانها .. هى تدخل فى أحجاره .. توقف كل شئ .. أزيز الطائرة وطلقات الرصاص وهرولة الأقدام لوحات سريالية حمراء ملأت زجاج السيارة أمامها .. الدنيا كلها حمراء .. الزلزال يكف عن أرجحتها فى الهواء وتهوى إلى بئر عميقة مياهها حمراء وفوهتها نافذة زجاجية عريضة تحول زجاجها إلى دقيق يمتزج بماء البئر الحمراء .. آخر التفاصيل التى وعتها والمشاهد تذهب إلى بعيد .. بعيد عنها وهى فى عمق البئر التى ظلت حفرتها تذهب بها أعمق فى باطن الأرض لمحت وجهه بينهم .. ظلال خطوط الوجه الذى تعرفه ولا تعرفه .. مدرس التاريخ ملامحه قريبة منه .. حاولت أن تتشبث ببقية خائرة من وعيها لتفهم لماذا أتى ليظهر فى المشهد الأخير .. مدت يدها إليه .. احتضنها بين كفين حقيقيين .. بردت آلام متوحشة نشبت أسنان ذئاب الأرض فى عظامها .. رفعتها أرجوحة الزلزال حتى لامست بذراعيها وصدرها السماء عادت وطوحتها ونثرتها عظاما حمراء فوق الأرض.. شاهدت رأسها بعيدا عن جسدها.. عرفت أن لحظة رحمة أخيرة توهب لها وإنه الرحيل أخيرا بعد طول الشقاء

(٦)

طالما اهتمت بقراءة تجارب الذين عادوا إلى الحياة بعد أن أعلن الأطباء موتهم وأكثر من مرة خطرت لها خاطرة أن يستطيع ميت أن يرسل تجربته .. لم يخطر ببالها أن تكون صاحبة التجربة

وأن تخوضـها بعـد أن فقـدت أطرافهـا فلم تعد تتـبين أعـضاءها وتفاصـيلها .. هل تستطيع أن تملي خـواطرها .. هل مازالت تملك صوتا يصـدر معـاني وكلمات .. لابد أن المعـجزات هنا تتـجاوز ما عـرفته وسيـعرفه العلم على الأرض وتختـرق بقوى متقـدمة حـواجـز الزمـان والمكان .. ربمـا وهي تـفكر تتـصل بأحـد مـا ويسمعـها وهي تفكر .. كأن هناك من يسمـعها ويحدث تلبـية لما في داخل رأسهـا أو يتخاطر مـعها ويدرك رغبـتها في أن تتـبين ملامح العالم الجديد الذى انتقلت إليه .

كان المشـهد رائعا للأرض المرتفعـة كهضبة عاليـة مدرجة .. في أولهـا وجدت تلامـيذ المدارس يـتعلمـون في فصول شـديدة البساطة والجـمال .. الأطفال والصبيـان والبنات يبدون كنوارس البحـر ولكن بوجوه آدمية ولهـم أجساد طيور البـحر في خفتـها وتقافـزها ونصاعـة بياضـها وأصـوات تختلط فـيهـا موسـيقى وضحكات وزقزقات ومطالعات . طبـيبة شابة كأن أحاديث طويلة دارت بينهما من قبل صنعت بسرعة تعارفا وتقاربا . كان للطبيبة دقة ملامح صديقـة دراستها الجامعيـة التي انقطعت أخبارها في الصحراء بعد أن ضاعت مع وباء حرب الخليج .

من داخل أكـفان بيضـاء وكأنهـا مومـياء تبعث . أصـغت إلى صديقتها . قالت لها : سنة أولى زراعة على أول درجات السلم .. زرع المحـبة والأمـان وحب المعرفـة في أرض العيـال ليتـعلموا ويتذوقـوا حلاوة التعليم وتكتشف مـواهبهم في فجرية أعـمارهم وينمو لهم واللحـم مازال طريا أجنحة الإيمـان والمعرفـة فيظلون العمر يحلقون .. وأربطة الأكفان تخف من فـوق مومياءها تسترد أطرافها وتحبو إلى أعلى .. كلمـا صعدت درجة من الجبل اختلف المشـهد . أحبت منطقة المراعي وتربية المواشي والأغنام وتصنيع الألبـان ومنتجـاتهـا يملؤها أطباء البـيطار الشـبان.. كـادت تجن

بجمال المـزارع الخضراء التى ملأها الفلاحـون وظهر أبو قردان كأنه عاد من البـلاد البعيدة التى هاجر إليـها بعد أن سكن التلوث فدادين الزرع. لابد أن نوبات غسيلـها المتكررة أعادته إلى الوادى الذى سكنه قبل أن يبدأ التاريخ.. عشقت درجة الجبل التى امتلأت بالفنانين قالت لها صديقتها أن قـمة البربا يوجد بها كميات هائلة من الطين المـعالج فى أحـواض ضخمـة معـرضة للشـمس منها يصنعون تحـفهم الرائعة الفـخارية التى تحمل الضـاحية القـديمة اسمها « الفخارين » .

البربا .. سـألتها هل تعرفـها قالت لها أنهـا الاسم الذى يطلقه الأسـتاذ على كل منطـقة تصنع لأولادها حـصنا بالعلم وبالعـمل ومن تعلم منا لابد أن يرد الدين بأن يهب جزءا من وقته للتدريس فى المـدارس الأهلية أو فى فـصول الـتقـوية لتلامـيذ المـدارس الحكومـية أو فى فـصول مـحو الأمـيـة .. وسط تصنيع الفخـار اليـدوى وبالدولاب الـذى يديرونه بأرجلهم وأفـران الـتـجـفـيف البدائيـة تتراجع وتزداد الأفران الحـديثة وجـدت الفنانين ـ وجوه تعرفها منهم وأخرون تراها لأول مرة قطع الطين بين أيديهم تحيا وتتنفس .. أصـابعهم فـوقهـا تعزف .. يسـتدير الطين .. يتـخلق يسـتوى قطعـة فنية نادرة . والأطفـال أحجـامهم دقـيقـة كعـقل الأصابـع حمـصتهـم الشمس ولونتـهم ولونوا أنفسـهم بالألوان الساخنة التى يسـتخدمونهـا يتقافـزون بين أرجل الفنانين شربوا عشق الطين وإبداعه .

الصـغـار المنحوتـون من الشمس والـطين والفرحـة يبـدون كالأوشـابتى المرافق لرحلتهـا الأبدية .. فى الفصل قال أسـتاذها وهو يشرح ـ أمـا الفانيس فـهو المـادة الجميلة التى كـان يطلق عليها قدماء المصريين البريق وأسميناه نحن المينا ـ صنع الفنان المـصرى الفـانيس من تركـيب قـابل للحـرق من الكوارتز النقى

وقاموا بطلائه بطبقة رقيقـة لامعة ليست إلا زجاجا من السليكون ويصنعونه بجميع الألوان مع طبقة لامعة خاصة من مركبات الرصاص متحولة إلى زجاج والنوع النمونجى الملون بمركبات النحاس تتراوح ألوانه بين الأزرق النيلى الداكن والأخضر الزاهى - كان الفنان يصنع فى فرنه مواد تحاكى الفيروز اللازوردى بحيث تتاح متعة وجمال وتذوق الفن للأغنياء والفقراء وظهر فى ألواح زوسر اللامعة وفى شباك الخرز الأسطوانى الملفوفة حول المومياء والتماثيل الشوابتى .

رفعت إصبعها فى الفصل بعد أن حاولت مرارا أن تسكته وتضعه تحت عظام وركها - لابد أنها « شاوابتى » كما نطقها وليست « الأوشابتى » كما قرأتها وحفظتها - الأستاذ لا يخطئ ستجيب سؤاله لتثبت أنها أعدت الدرس قبل أن يشرحه وتحفظ التاريخ كالحواديت وتحبه وتحب لحظة الفوز بتقدير وإعجاب أستاذها - طالما رأته فى حلمها يربت كتفها واقتربت منه أكثر وقامت مفزوعة وظلت طوال حصته تكسر عينيها فربما رأى الحلم فيها ..

وسط صمت الفصل ووسع التاريخ وأعمدة المعابد والبرابى حيث تحلم أن تعيش حارسة للآثار أو عالمة أو منقبة أو مرممة سمعت أصداء صوتها من بعيد - الأوشابتى هى التماثيل الصغيرة المجيبة على هيئة أوزيريس ابن جب ونوت وشقيق ايزيس ونفتيس وست مرتديا الرداء الحابك وعاقدا ذراعه على صدره كما توضع المومياء وتأخذ اسم وشكل المتوفى - ويقولون أنها تلبى عن الميت الكريم أداء أعمال السخرة إذا دعى لها - إنه ينادى عليها ويقول لها - أحملى عنى الصعاب سواء كانت حرث الحقول أو غمر القنوات بالماء أو حمل الرمال من الشرق إلى الغرب .

استجمعت شجاعتها لتضيف - أرى لها تفسيرا آخر فكل تمثال

على دقته يحمل آلتين لعـزق وتقليب الأرض ويعلق فى كتفه سلة ـ هل من يعمل يحيا ولا يموت أبدا ـ والأوشـابتى واسمها القديم الشوابتى رغم حجمها الصغير فبريقها الأخاذ من الفيانس الأزرق أو الأخضر يمتلئ بسطور من كتاب الموتى ..

قرأت من على لوح الإردواز التى آمنت أنه لابد مـوجود داخل رأسهـا بعضا ممـا حفظت ـ **الجلال لك يا رب لتضـمن لى طريقا عـسى أن أعـبـر عليـه فى سـلام لأننـى عـادل وحق . لم أنطق بالأكـاذيب عامـدا ولا ارتكبت ألبـتـة خداعـا . لم أقل كـذبا أدريه ولا فعلت شيئا بقلب غاش .**

دوى الفصل بالتـصفيق .. تبـينت أنه لها . النشوة فـوق طاقة جسـدها الصـغير وتـلك النظرة الثابتـة التى آمنت أنهـا قادرة أن تفحص وتقرأ ما وراء الـجبين التصقت بحدقتى عـينيها لا يمكن أن تخطئها ..

فضت خطوط الزمن من حول عـينيه ـ حاولت أن ترى ملامح الوجه بدون اللحيـة الكثيفة الرماديـة ـ السويس الإعدادية بنات ـ مـدرس التاريخ .. هو.. له الصـمت المـهيب والإشـعـاع العمـيق لا تعـرف إن كان مـا أعادت ترديده مـمـا لم تمح منه الأيام بكل أثقالها كلمة واحدة قد ذكره بوجه الصبية المتفوقة مالكة الحزينة كمـا ناداها بعد مـا كتبت فى امـتحانهـا عندما طلب الأسـتاذ من تلميـذاته أن يكتبن عن طائرهن المـختار واخـتـارت مـالك الحزين بحكايتـه الجميلة عندمـا غمـرت مياه الفـيضـان الوادى لم تترك سوى القـرى والمرتفـعات وشـاهد الأوائل من المصـريين طائرا رشيـقا ينزل المـاء أحيانا ويقـفز أحـيانا إلى الروابى كـأنه ملاك حارس للمـاء يبدو وكأنه يولد منـه عند الفجر .. آمن المـصريون أنه يولد من الشمس.. وأن ما ولد مـن النار لا يحترق أبدا .. لذلك كلما دخلها تجدد وعاد .. مالكة الحزينة .. أحبت النداء وتمنت أن

تغير أسمها فى شهادة المـيلاد . أصبحت ترى صورته فى مرآتها ربما لأن لها نحوله وساقيه الطويلتين وشعرها القصير كان دائما كـالريش الطائر فوق رأسـه .. هل للوحـشة التى تسكنهـا كأنهـا هواجس زمنها القادم .

سمعت أنه فى العالم الآخر ـ الـذى عبرت إليه تلتقى الروح إذا استـحقت من أحـبت وتستـعيد مـا أحبت .. عـرفت أنها تسـتحق ما دامت طرق الفهم بدأت تتفتح لها ومن أحبت يأتون .. صديقتها الفنانة السمراء الجميلة التى عرفت أنها قادمة من واحدة من قرى النوبة ـ وهى تدير بساقيها دائرة دولاب تشكيل الجص وأصابعها تسوى ثنايا جسـد فارع لفلاحة وتعد للمـشاركة فى بينالى دولى بعد أن فازت فى أول مشاركة حكت لهـا أنهم كتبوا تقارير إدانته بصنع ثورة من خـلال الـتـدريس ـ قـالوا أنه يمـارس نوعـا من التنويم المـغناطيـسى على عـقول التـلامـيذ والتلـميذات وأنهم يخرجـون من حصصـه مسحـورين ـ لاحظ تكرار ظاهرة هروب الأولاد والبنات إلى مناطق الآثار .. حـقـقوا مـعه وسـجنوه وظل يردد جملة واحدة ـ أنه يؤدى واجبه فى تربيـة أجيال تتعرف إلى تاريخهـا وأنهم إذا تعرفـوا تفتـحت عقـولهم وأرواحهم وامـتلأوا وتحـرروا .. خرج من السـجن مفـصـولا واعتـبر أنه تحـرر من الوظيفة ليـواصل دراساته فى الآثار ويبحث عن محبـين يشيدون معه البرابى .

منذ بدأت تصـعـد والكلمـة تطرق أذنهـا ـ واستـعـادت رحلة الأقصـر وصوت مفـتشة الآثار ـ البـربا هى المعبـد الذى أنشأه الأجداد تحسبا لطوفان قـادم أما نار تحرق أو ماء يغرق ـ ووراء صروح المعابد وفى مـخازنها العميقة فى جـوف الأرض وفوقها يضعـون الحبوب والاحتيـاجات الأساسيـة للحياة حتى يـجتازوا الطوفان وفى القسم الثـانى من المعبد يحتفظون بكـل ما يحبون

ويريدون أن يحفظوا لمن بعدهم من كتب وعلوم وفنون وازدادت معارفهـا هنا فبرديات كثيرة حددت أزمنـة الطوفان .. كلما أغرق الفـساد الأرض واسـتـحل الدم والعرض وبيـع الشرف بالتـراب وغطى التلوث المخلوقـات وتنفسه الناس بدلا من الهـواء وشوى الزيت السـمك فى المـاء وأكلـت الحـرائق الغـابات والطيـور فى السمـاء وتكممت كرة الأرض بـأثواب الحزن الأسود فى طبـقات الدخان ويتـولى اللصوص . مفـاتيح الكرار ويترك الكف المـيزان ويفـتح عـينه ويمـد يده وفى واحـدة من البـرديات المسـروقـة والمحفـوظة فى متاحف الدنيا قالـوا أن البرابى سيتغـير شكلها وتشـيد مقـاصيـرها وأعمـدتها وسط من تعلـموا وأمنوا وأحـبوا وعـملوا وأبدعوا وتمـاسكوا ورغم ســخرية الـكثيـرين من أفكاره ودعوته .. فـهو لا يكف عن نشرهـا .. والمحبـون القادرون على تحقـيقها يتـزايدون والمحبـون المحتاجـون يبحثـون عن البرابى ليتـعلموا ويعملوا ويتـكافلوا ويغسلوا أيديهم من البطالة وعـيالهم من التـفـاهة والأولاد الأكـبـر من الإرهاب والمـدارس الأهليـة والخـيرية تتـزايد .. تلتـزم بمناهج التعليـم الحكوميـة المقـررة وتضيف للتاريخ وللتدريب العملى مناهج خاصة ..

وأرض بيتـها الجبلى الصـغير كـبر فيـه الطين وطالت قامـته واستدار ونطق وتحرك فى أشكال مستـوحاة من الفنون الشعبية ومغطاة بالفانيس بألوان مـبتكرة صنعتها بنسب وخـامات جديدة أعطتها وهج الشـمس داخل الألوان الساخنة . قالت لها صديقـتها الفنانة ـ يبـدو أنه ما زال يعاقب .. يتكرر غـيابه غـير المفسـر ـ وكـانت هى قـد لاحظت تكرار حـدوث عـسس فـى الليل وظهـور أشـباح عـسكر حـتى ظنت أنها درجـة سـرية من درجات الجـبل يسكـنهـا رجــال أمن لا يـأتون إلا فى الظلام .. وهـى تواصل التشكيل أكملت ـ اتهموه باكـتشاف وإخفاء برديات نادرة .. تكرر

التفــتيش وأخذه للتــحقيق بحــثا عن البرديات كل مــرة يرد عليهم بوثائق دامغــة بحجم ونوعية المــسروقات وأسماء الســارقين من كـبـير الــحراس حــتى الصــغـيـر .. تأكـدوا أن ثروة بردياته من مستنســخات لكنهم يريدون ما سمعوا أن دراسته توصلت إليه .
يعتقدون أنه حـصل على بردية نادرة عن أزمنة وقوع الطوفان .. وما سمعته أن مفاتيح المعـرفة موزعة فى مجموعة من البرديات تجميعها يجمع العلامــات وينبئ باقتراب موعد .. تظن أنها سمعت عما يحدث إذا تطابق العقربان واتحد الزمانان وأصبحت العلامات بينهما واحــدة وبدأت الصروح الشاهقة كبـيوت من الحلوى أكلت جيـوش النمل قلبهــا تتهــاوى وتحول الحديد بالصـديد إلى تراب ومن تحت جـبال الركـام يولد مالك الحـزين على صــورة عروس للنيل حية تتنفس ـ تتلو الكتب أسرارها ويرسل القرآن نوره وتدق أجراس الكنائس والتوراة تعلن حروفها براءتها من سلالة من قتل وحرق ودنس .. وســمعت أن بردية أخرى .. تكـمل ـ انه لا ينجو من الطوفـان إلا من شــرب النور وتعلم وعـلم وعلم .. ينمـو لهم عظام لا تتكســر ورئات تـلد الهـواء وتتنفس عندمــا يبدأ وقــوع صــروحهم الواهيــة يخرج كل من شــرب النورحيــا ـ الأرض لن تتوقف عن التصدع حتى تفقد بوصلتها وتتوقف .

حاولت أن أسـمع منها أكثـر .. لا أعرف إن كانت اعـتذرت أو علاقة الذوبان التى تحدث بينها وبين تشكيـلاتها الفنية أخذتها أو نوبة جديدة من نوبات تداخل الأحداث وغـياب وعيها حدثت فـبعد الحادثة كان هذا الغياب قـد أسكت زلزالها القديم وأبقى اهتزازات هادئة من حين لآخر تصعد بها وتهبط وتعيد لها شرائط ذكرياتها وعادت إلى تدوين مذكراتها .

كانت قـد أصبـحت أكثر أوقــاتى وأسعـدها فى المكتبـة حيث الأستــاذ وسط صــمت القارئين والقــارئات يقرأ ويدون ـ لفــتتــه

اختيـاراتى من الكتب ـ فى قاعة المناقـشة قلت له أننى أبحث عن كاتبة كنت أعرفها سرقها الزمان منى ـ وأننى كلما قرأت وأبحرت ازدادت مـلامحـهـا تخلقـا وبدت أقرب إلى أصـابعى .. مـتى بدأ يعطينى أذنه ويسمع ويعطينى قراءاته ويعلم .. السطور والمعانى تصنع جـسورا إليـه فوقهـا أعبـر ـ حكت له عن تلمـيذة الثالـثة إعدادى المتفوقة والمعلم الذى أسكنها عشق التاريخ والتعرف إلى التراث وحكت حادثة نفرتارى فى معبدها فى أبو سنبل فى الرحلة التى نظمتهـا المدرسـة إلى هناك وكيف من طول ما قرأت وأحبت نفرتارى قررت وصديقتاها الأقرب أن يعشن إلى جانبها واختبأن فى سـرداب من السراديب المـسحـورة التى كـان يمارس فـيهـا الكهنة طقـوسهم .. ولم يكتـشفوا غـياب الثلاث بـنات إلا قبل أن يتحرك الأتوبيس بدقائـق ـ قلبوا الدنيا علينا ـ ونزل الليل وأطبق الظلام ولم يكن المعبد قد أضيئ فـامتلأنا بالرعب وخرجنا وكذبنا وادعينا التيـه داخل المعبد وكـدنا نعاقب بالفصل ـ وعرفنا فـيما بعد أن الحادثة انضمت إلى القش الذى قصم ظهر الاستاذ .. ربما لأول مرة أرى ضـحكاته تنطلق وتجلجل من قلبه ودموعـه تغسل وجهـه ولحيته وأخـاديد وجهه كأرض سـمراء أخوارها بفيـضان النهـر تمـتلئ .. إذن مـالكـة الحـزينة أنت .. إذن يتـذكـر مـالكة الحـزينة.. ماذا أيضـا عنده فى عـمق الذكـريات .. لم تذهب منى بعيـدا أو أذهب أنا منها البنت التى كـانت تكسر العين بعـيدا عنه حـتى لا يعرف الشـئ الآخر الذى كنت أبحث عـنه داخل العيـون التى أسكنتها الـزمن أغوارا بعيـدة فى وجهه .. وذلك الإعـجاب به المشـوب بالبطولة والإحساس بالذنب الذى لم يفـارقنى منذ غاب أن تكون حادثة الثـلاث بنات كما اسمتـها الصحف شاركت فـيما حدث له وتواترت أطـراف أخبار لا تكتـمل ولا تتضـح.. أنه سـافر للعـمل فى الخـارج وأنه استـبـعد عن مـهنة التـدريس ونقل إلى

وظيفة كتابية فى الوزارة .. وهى تندهش لرحمة الأيام التى دلتها إليه أشـار إلى الأوشابتى الصغيـرة بحجم الأصبع الرفيع مـعلقة فى صدرها ـ كنت تعلقينـها فى الفصل .. من زمن .. من زمن .. زمن بعيد بعد العـصور السحيقة . لم يتقـافز طائرها الساكن فى قفص صدرها .. من العصر الجليدى الذى دخله عمرها توقف عن النبض وخمد وشـيعته إلى مثواه وأقـامت له شاهدا من الشواهد التى أثبتـتها فوق الموت الكثـير الذى يملأ حيـاتها ـ طائر النار ـ مالك المولود من المعاناة والألـم هل له زمان آخر يولد فيه .. هل يتـذكرها أم تهـذيبـه الشديد يربـت فرحـتهـا التى أفلتت منهـا ـ يستوى الأمر ـ أطلقت العصفـور والبنت الحبيسة وحكت له كيف عثـرت عليها فى دكان صـغير كأنه كـهف صغير فى ظهـر جبل عتـاقة ـ كان يمـتلئ بالجعاريـن وعرائس الأوشابتى من الحـجر والخشب والمـعدن ووسطها عـجوز كنحت الجبل وعـمر الزمن ـ وأشرت إلى واحدة فـقط بينها من الفيروز ـ ولكـن مصروفى لم يكن يكفى ربع ثمنهـا فاعتذرت فنادانى وقـال لى بالمحبـة أكملى ثمنها الغـالى وأخذتهـا وقلت له سأعود بالديـن وبصديقة عـمرى لتحـصل على مثـلها ـ هز رأسـه وقال كل شئ نصـيب ـ وعدت لأكمل ثمنها وأعتذر عن صديقـتى التى ضحكت عليها ـ فلم أجده ولا علامة واحدة تدل عليـه كأن لم يكن ودرت حول الجبل أبحث عن أثر للشق أو الكهف وسـألت كل من قابلته هنـاك وقالوا كلهم أنه لم يكن هناك أبدا هذا الشبح ولا متجره .

تحاورنا طويلا حول الحقائق والأساطيـر وكيف كانت مفسرة لكثير مـما لا أعرفه ودخلت فى تشكيل وجـدانى وعقلى والطريق الذى جاءت منه المستجيبة بفـيروزها شبه المضئ فى عتمة الليل

ولحبـبتـها وتعلقت برقـبتى وتفـاءلت بها وحاولت أن أربط بـينها وبين أشياء قليلة جميلة تـحدث بشق الأنفاس فى حياتى ثم توالى بطلان مفـعولها أمام الأحـداث الكبرى ثم توالت تفسـيرات الأيام ومع ذلك لم أفـقد أبدا الإيمـان بسرهـا العمـيق مشـروطا بالحق والخير والجمال .

(٧)

لم أصدر قـرارا لنفسى قدر ما اتخـذت هى القرار .. تلك التى عادت إلـى مكتبى لم تكن هى التى صـعدت الجـبل ـ هل أعطتـها التجربة تمـاسكا واتضحت الرؤية إن ارتجاج الواقع العـام حولها يتحالف مع مرضـها ليصنعا زلزالها ـ هل ما سمعـته وعرفته أن البـربا تسكـنك ولست أنت فـقط الذى يسكن الـبـربا ـ هل يصح عليـهـا وبدأت مـواسم إثمـاره ـ هل دروس الوجع والتـعلم التى تشرق بعد أن تنضـج المدركات اللبنية ـ أنك بقدر ما تحب وتعرف تتفـتح روحك وحواسك وتملك قـدرات الرؤية والكشف . لنفسـها تستطيع أن تعترف أنها بقـدر عشق الاقتراب منه من أجل التاريخ وفـهم الذات كان الاقـتراب مـن أجل الإنسان وهذا التـزود الذى يصنعه لروحها والشبع الذى يرسله إلى اشتـياقها للحب بمفاهيم طرحـها النضج واثبـتهـا سقوط الأيـام مع رفقـة العجز وإحـالة مشاركات العـقل ومتع الجسد إلى مناطق المصـادرة والاستحالة .. قرأت ولم تصدق حتى بدأت تعـرف وتجرب أن كل ما لم تعشه فى أوانه سيطاردها فى غـير أوانه ويصبح المسـتحيل أن تسقط فـيمـا يتناقض وقـيمـهـا التى تقـيم عمـودها الفـقرى ويصـبح المسـتحيل الآخر أن تحـيا بموت عـقلها وروحها وجـسدها . هل يستطيع الامتـلاء بالتعلم والشبع بالفهم أن يسـد كل المنافذ التى

تتسـرب فيـها نداءات الروح واحـتيـاجات بشريـة أعطتها أنـظمة التربية مظان الضعف وتابو المـحرم وتؤكد الأيام أنها داخل إطار القيم تمـثل للوجود جـوهرة من جواهر قوته . وهى تـسيطر على ايماناتها رغم الوجع العاصف بروحها بدأ زلزالها كأنه فى لحتياج إلى هدنة أو تعب منهـا ومـعهـا يتـخلل الكمـون أوقاتا للصـراع ولتهاوى الصمود - ثم استـرداد لسكينة الروح واستعادة لها من بلادها البعيدة التى تغربت فيها تطلب سكنا - الاحتياج إلى السكن ازداد باكتـمال غربتـها عمـا يحدث حولهـا .. تعاود الكرة الرقص فوق قرنى ثور يترنح .. تعاود ركوب الأرجـوحة والاستسلام لها - تستـرد الهدنة ويطول نزولها من فـوق أرجوحتهـا وهى تعاود ملء قلمها بالألم الإنسانى وتطلقه رصاصا فى كلماتها .

الذهاب إليـه فى واحـدة من البـرابى التى لا يكف عن نشـرها وزرعها وجمع المحبين حولها أصبح ملاذا وشحنا للطاقة - قالت له وهى تمشى إلى جانبه تحت المطر - يغسل الروح والأيام رغم الطين يمـلأ الأرض ويثـقل الأقـدام وصـبيـان وبنات المـدرسـة الخـيرية يتـقافـزون حولهـما - كنت أريد جـزرة واحدة تمـضى وراءها الأيام أخشى أن تصبح مشكلتى كثرة الجزر .

وكمـا تعودت أزمنة الراحـة والأمان قصـيرة وازدادت قـصرا وغيـابا فقـد طلب منها أن تكـف عن زيارته وصعـود الجبل فـقد ازداد الرصد - ضحكته التى لها مذاق شراب منقوع مرارة العالم سمـعتها همـسا قبل أن تنخـفض همساته أكـثر - يريدون بردية يتشـككون فى أننى عثرت علـيها فى عـرابة أبيدوس - أصـبحت مطلوبا من لصوص المتاحف المحترفين - كلهم يعرضون ملايين الدولارات بينمـا جهات لا أعـرف هويتهـا تريد إخفاء مـا تظن أنه ورد فى البـردية - يعتـقـدون أنها برديـة النبوءات التى أشـارت جداريات مـعبـد دندرة أنها تحمل العـلامات المـؤكدة أن الأرض

حبلى بـالزلزال وأنها لابد ســتلده ـ يعتقـدون لجهلهم أنــها برد
واحدة والعلامات منتشرة فى برديات كثيرة وكثير ورد فى برد
آبور التى وجدت ممزقة ولغتها صعبة ولستحالت ترجمتها ترجد
واضحــة متـصلة ـ وقالوا فى الأجزاء الـممزقــة المفـقودة أزم
تقريـبية لوقـوع الزلزال التى ستـشهـدها أرض النيل وأخطر م
تحديد الأزمـنة تحديد العلامــات ـ إذا تجمـعت سبع منهــا أصا
تاريخ الزلزال . وفى مكـتبـه ومن خـزينة ســرية أفــرغ ثروة م
مستنسخات بردياته ومن علبة مبطنة ثمينة أخرج قصاصات بلي
تماما من البردى ـ كان لا يمسك بهــا قدر ما يتلامس معها ورت
بعضـها منها حول أطراف بردية منسوخة ممزقة فتكاملت . عرفه
أنه عثر عليها بالفعل فى العرابة وسط ثروة هائلة ضائعة ومهما
ـ رغم ما تحاوله بيوت طيبة كثيرة هناك وتضم كنوز مخطوطا
وبرديات وتحرسهــا إلى أن يتولاها من يعرف قيمتـها ولا يهربه
إلى الخارج ـ قصاصات البردى البالية التى يأتيه بها الشباب م
هناك يعالجها ويرسلها إلى المتحف المصرى ويحتفظ بنسخ منه
ـ هذه القـصاصات كـانت تحت المـعالجـة ومحـاولات الترجـم
للحروف المتناثرة وبقايا الكلمات الضائعة ـ تجمـيعها مهمة شاق
وتفسـير أنصاف وأرباع حروف أحـيانا فى إطار المعـانى الكلي
يأخذ فى ولحدة سنوات أحيانا يجمع العلامات ..

فى واحــدة منهــا رسـمـوا: إذا فــرغت اليـد وكـفت عن البنا واستبدلته بالهدم وضــاعت المقدسات فلا بيت ولا زرع ولا عيش وتسـمم المـاء وضلت العـقـول وادعى على الإلـه الخلق بالقـتل والسفك وأصــبحت العقيـدة للاستحــلال ولم ترتفع البرابى دلخل جدران اللحم أكل بعضه وملأ الأرض بالدماء.

تمزيق قطع النص.. ثم عاد فى موضع آخر يقول

إنهم يقولون عنك يا أوزوريس ولو أنك ترحل إلا أنك تسـتيقظ

ثانية ولو أنك تموت إلا أنك تبعث مرة ثانية قف .. انهض

جاءت ايزيس على هيئة طائر وطرحت نفسها فوق أوزوريس المحنط وضغطت نفسها فاستعاد قوته الحيوية

الضغط والقوة يجددان الميلاد .. ستظل ايزيس تهب أوزوريس الحياة كلما أكله الشر وأسقطه ميتا - ضغطها وقوتها - كل إيزيس فوق النيل ستفرش الخضرة وتجعل الموت حياة.

عندما يكتمل من العلامات سبع وتعود الدماء ويقع الزلزال تحمل الأمل عروس للنيل تخرج حية من قلب الطوفان وتبعث من تحت الأنقاض تعلن وتجدد الميلاد

(٨)

العودة إلى الحياة بدأت بالموت.. بعد ساعات من مذبحة الدير البحرى طارت إلي صديقتها مفتشة الآثار التى نقلت قبل أيام للعمل فى المعبد ونجت بمعجزة في حجر حتشبسوت كما كانت تسمى ساحة المعبد.. ورجفة تسرى فيها كمس كهربى لا يتوقف وصفت كيف مزق العيال اللحم وقطعوا الأثداء وفقئوا العيون وصبغوا الجدران بالدم.. ظنوا إغماءها موتا.. ودماء الطفلة التى خبأتها فى حضنها دماءها.. أقسمت أنها شاهدت بعينى رأسها صديقتها حتشبسوت صاحبة المعبد تصد الموت بذراعيها حتى تقطعا وسط اللحم الذى تمزق وأقسم مثلها الخفراء أنهم رأوا سيدة رسوم الجدران وسط أبناء الجبل فى ثوب حزن أسود عميق تطارد القتلة وتغلق عليهم المغارة.. وأنها أشعلت للقتلى الشموع وعبرت النهر وجاءت بالبخور من جذور الشجرة النادرة التى جعلت بعثتها إلى بلاد بونت تأتى بها من هناك وزرعتها فى حدائق الكرنك المقدسة.

إجراءات انفصالها عن زوجها أوقفـها موت ابنها الكبير بجرعة إدمان - يقـينها كـامل ولا تمسك دلـيلا واحدا أن أباه ضـــالع فى الاتجار - قاومت أن تفلت منهـا سيطرتها على جثتهـا وتقتله حتى لا تتـرك للولد الباقى مـيراثا أكبـر للألم .. عاد الولد من الغـربة غريبا .. زلزلته مـحنة وموت أخيه فازداد التصاقا بهـا واستغراقا فى دراسات دينية بلا تطرف أو جماعـات - اطمأنت أن تستعيد له ثباته وتهدئ روعـه وتجمع شتاته . لأول مرة تسـتعيد إحســاسها بأطرافها التى كان تلاشيها كـل يوم يتأكد .. مازال لها وجه كانت قد نسيت ملامحه - وابتسامة كسيرة يسكنها وجع الأرض قادرة أن تتسرب منها وهى تراه يسترد عافـيته ويطرق رفوف مكتبتها التاريخيـة ويحاول أن يفهم - تستطيع أن تعـود إلى البربا بالولد هناك وبالتـدريج عثـر على الأب وبدأ يمـتلىء الفراغ الذى طالمـا أحست ولديها يقـيمان بنوتهما وحواراتهـما مع الأب الغائب وراء نجاحـاته المادية حـسب مقـاييس واقعـه المتكافئ مـعه تمـاما - راقبت بقلب مذبوح محاولتهما المستحيلة أن يسكنا الفراغ أبا من لحم ودم .. على الأقل واحـد منهمـا نجح .. فى البـربا انضـم إلى مـجمـوعـة المحـبـين والدارسـين وقـدم أوراقه لقـسم التـاريخ بالجامعة .

زلزالها يهدأ وحلمها الخـاص يتراجع بعد أن ضـاع من زمانه وتكسرت بقية المجاديف التى تستطيع أن تجدف بالعمر فى قارب وبحار جديدة وعادت إلى بردية أبورتقرأ .

لقد شحب الوجه .. والأجداد قـد تنبأوا وحامل القوس أصبح مـسـتـعدا والمـجرمـون فى كل مكان ولا يوجـد رجل ممن كـان محترما بالأمس .

حقا إن النهابين فى كل مكان .

حقـا إن النيل فى وقت الفيـضـان ومع ذلك لا يحـرث أحد من

أجله وكل إنسان يقول لا نعرف ما حدث فى أنحاء البلاد .

حـقـا إن القلب الثـائر والوبـاء قـد انبث فى كل الأرض والدم صـار فى كل مكان ولفـائف المـومـيـات تتكلم وإن لم يقـتـرب الإنسان منها .

حقـا لقد دفن رجال عديدون فى النهـر فأصبح قبـرا وأصبح الحـزن يملأ قلوب أصـحاب الأصـل الرفيع والطيب والقـاذورات منتشرة فى كل البلاد ـ وتحول النهـر دما ويظمأ الإنسان للماء ـ إن البوابات والعمـد والجدران قد التهمتهـا النيران ومع ذلك فإن حجرة قصر الملك وبيوت الـوزراء لا تزال ثابتة وواقفة وأصبحت سفـينة الجنوب شاردة وأصـبحت التمـاسيح فى تخـمة ممـا قد سلبت إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر وأصـبحت حالة البلاد سيـئة وحـفارو القـبور يرون فى كل مكان وكل شئ ينـحدر إلى الدمار والحزن يمـشى فى طول البلاد ممزوجـا بالأسى والأحياء أصبـحوا مثل الأمـوات وسقط شعـر كل إنسان وقلوب الماشـية تبكى والقطعـان تندب حالـة البلاد وعـمت الوقاحـة على الألسنة والرجل يقـتل أخاه من أمه ـ والأخ ينبـح بجواره أخوه فـيتـركه وحيدا لينجو بنفسه .. والرجل ينظر لابنه نظرته لعدوه .

أنظر لا صانع يعـمل .. ومن حصـد المحصـول لا يعرف عنه شيـئا ـ ومـن لا يحرث لنفـسه يمـلأ مخـزنه والكاتب يجلس فى مكتـبه ولكن يداه لا تعـملان شيـئا والتـجارة الخـارجيـة تنحط وأصـبـحت الشوارع والـطرق تحرس بالـلصوص .. وأصـبـحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار ونظام البلاد قد قلب رأسا على عقب .

حقا لقد مات السرور ـ ولم يعد يحتفل به ولم يعد فى الأرض إلا الأنين الممـزوج بالعويل ويقول الحكيـم ليت آخر الناس يكون قد حل فلا حمل ولا ولادة ـ ويقرع الحكيم نفسه ويلومها لأنه لم

فى ذلك الوقت ورفعته فى كل وقت تتكرر فيه العلامات حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن ـ فالويل لى ولكل من يترك البؤس يعم الزمان .

نزلت للواقع تتداوى بعلاجه وتستجيب لنداء الحكيم وتكتب ولا تكف عن الكتابة ـ ولا تكف عن الكتابة ـ اكتشفت أنها تكتب أو الكثير منه تكتبه لعدم النشر فموضوعاتها ثقيلة الظل والدم والمجلة تريد أن تبيع وما تكتبه لا يباع إلا فى الإمام الشافعى وعمر مكرم ـ احترمت بشدة رأى رئيس التحرير الذى اكتشفت أن أكبر مؤهلاته هى إحالة الرءوس إلى الراحة من صنوف وآثام التفكير الذى أصبح يتلازم مع علو الشأن وازدياد النفوذ . زهد الألم من كثرة ما أوجعها أم فرحة الروح بمرفأ أمان للعقل واعتراف متأخر بالمرأة التى أصبحتها من رجل كبير رغم عذابات إيقاف التنفيذ ـ أم انتماء عميق للناس القادمة منهم لم يعد يترك لزلزالها القديم إلا ذكريات .. النوبات أصبحت أهدأ وزمانها أقصر وعدم النشر يزيدها اتصالا بالواقع وحركة فى قلبه وإصرارا على المواجهة .

من المرآة أصبحت تطل عليها امرأة أخرى .. النضج والفهم والناس الذين أصبحوا لها أضافوا اطمئنانا وتقلبا لأرضها التى تعطنت .. عاد الهواء يتجدد والشمس والنور ينفذان إلى مسامها والبريا تعلو داخلها وجدران وجودها تصبح من صوان أسوان والنقوش التى اكتشفت أنها محفورة فى الذاكرة ومكتوبة على دمائها تزداد وضوحا وتتردد أصداؤها .

(٩)

فى مكتبــها .. كعــادتها عندما تدخل مــندفعة كــالسهم ـ طلبت فنجان قهــوتها وسـألت عن صحـفها ومجــلاتها وكعادة صــديقها الساعى العجــوز لابد أن يتأخر لانشغــاله فى مهمته اليــومية فى جرد، ومراجعة عهدة روبابيكا الأرجل والمــساند والمقاعد القديمة التى تصنع كومة فى الشرفة الخلفية حتى أصبح فتحها مستحيلا ومازال بانتظار لجنة الجرد لتخلى مســئوليته ويدخل قبره نظيف اليد والذمــة.. أخيرا جــاء بلفافة بريــدها وصحفــها ـ وانتظرت أن تأتيها زمــيلتها التى تنافس وكالات الأنباء ولابد أن تداعبــها بآخر ما يتــحدثون به عن تطور عــلاقتــها بالاســتاذ وكانت تحـكى لها وترجو منها أن تنقل لهم ما لن يفهــموه أبدا ـ كيف يتجاوز اثنان بالتواصــل الروحى والعقلى جـميع مســتويات الارتبــاط الأخرى ويمتــزجان ويتــوحدان حتى يصــبحــا واحدا كيف يرتــبط الواحد بالواحد..؟! كان لابد أن يظلا اثنين ليحتاجا إلى ارتباط يوحدهما .. خذلها وخذلته وأصبحا واحدا !

تبحلق زميلتــها وتؤكد قســمها اليومى أن العلامــات تتأكد كل يوم أكثــر أن عقلهــا تآكل وفرغ رأسهــا وهذا سر المــصائب التى تحدث لها .. لم تشكرها اليوم بــالحرارة التى اعتادت أن تشكرها بهــا وتؤكد لهــا أن مقــياســها هام جـدا للأطمئنان على نــفســها وسلامــتها فــقد كانت منشــغلة بالخبر الذى تــحمله فى زهو عن ترشيح كتابه الذى حقق فيه مجموعة من البرديات القديمة لجائزة كبرى دولية وتعيينه خبيرا للمصريات فى منظمة الثقافة العالمية. أعدت إذنا لتصويره فقد كانت على مــوعد معه فى مكتبها . تمنت

أن تقول للمصور الذى جاء يتعجل موعد حضوره الذى تأخر إلى قرب الثانية عشرة ظهرا أنه يستطيع أن يسلط رأسه على جبهتها ويلتقـط صورته ـ المشكلة أنـه لابد سيظهر فى الصـورة الملف الكامل بصـور حياتـها . دار الشريط بـالصور والخواطـر ـ كيف تأتينا الأيام بما نحلم حتى لو كان فى عمق الصبا البعيد . أصداء صوت أبيها كانت تقول لها ردا على قلقها دائما « عندما نصدق .. ونخلص .. ونسـعى .. ونموت سـعيـا وإخلاصـا وصدقـا .. » ـ ودائما كان يضـحك أبوها وتضـحـك معـه ويقـولان معـا ـ موت يا حمار .

وهى تعيد ضبط تـاييرها الأبيض الأنيق تذكرت الوقت الطويل الذى قضـته أمام المـرآة لتحمل إليـه أبهى صورة لهـا رغم أنها تعـرف أنه يصنع لما حـوله صـورا من خلال النسب والتـشكيل العـقلى والنفسى والإنـسانى ـ أجـهضت انفـجـار ثورتها عندمـا انسكب فنجان القـهوة على أناقتها البـيضاء عندما اكتـشفت أنها والفنجان يترنحان تحت ضربات نوبة من النوبات العنيفة القديمة لزلزالهـا والتـى غـابت من زمن عنهـا . تلك النـوبات التى كـانت تركبـها أرجوحـة مجنونة تنفصـل عن دائرتها وعن مدار جـاذبية الأرض ولا تكف عن الاهتـزاز والصعـود والهـبوط . هذه المـرة البنايات أيضا تغادر أماكنها وتقتـرب من بعضها إلى حد التصادم وتتراجـع فى لحظات التلامس الأخـيرة . مـاذا أعاده بهـذه القوة إليهـا . أمسكت بالمكتب تحتـمى به من السقوط تحتـه وجدته مع ضخامتـه مثلها مثل الريشة يجرى من يمـين الغرفة إلى يسارها وهى وراءه بعجلات مـقعدها ـ تنبهت أن أصوات صرخات تأتى من الخـارج .. صديقها الساعى العـجوز انشقت الأرض عنه يتمتم متأتهـا بآيات من القرآن الكريـم ويشدها من وراء المكتب لتـجرى إلى السلم قـبل أن تسقط البناية ـ لمـا قاومـته .. تركـها وهرول

واختفى .. والبنايات تعود إلى أمــاكنها وما فى المكتب من تماثيل وكتب تناثر وملأ الأرض والنافذة تأتى لها بالشارع ممتلئا بالبشر - فهمت أن الأرض هذه المرة هى التى أصابها الدوار.

هرولت إلى خارج مكتبـها تطمئن - نفر قليل عاد .. المـجموع الأكبـر هرب إلى مساحـات الخلاء بعيـدا عن البنايات الأسمنتـية الرابضة .. من يدرى قد تعاود محاولتــها المجنونة للانفصال عن الأرض وتواترت أنبـاء مـاوقع ومـا تـصـدع وأعـداد من القـتلى والجرحى استحالت الاتصــالات وامتلأت أسلاك الهاتف بأصوات يســتحــيل تفســيرها حـتى ظنت للوهلة الأولى أن الزلزال أحـدث اتصالا بسكان كـوكب آخر .. استــرد ارسال الإذاعة والتليـفزيون انفاســه بعد انقطاعه وامـتلأت الشـاشة بخطوط متـعرجة كـأنها مازالت تعانى رجع صدى الهـزة الأرضية - وأدلى مرصد حلوان فى بيـانه الأول أن قوتهـا ٥,٨ ريختر .. الـتابع الأول أعقــب بعد قليل .. بصــعــوبة شقــت طريقهـا وسط الشــوارع التى اخـتنقت بالناس تتدافع إلى مـساحات الخــلاء بعيدا عن العمـران كأن الكل يريد أن يذهب ويعود فى لحظة واحدة .. كالمعتاد لابد سيضاعف الفزع والاضطراب نــتائج الكارثة - كمــا توقعت وجـدت ابنها فى فريــق الدفاع المــدنى الذى تدرب على أعمـــاله فى بربا الفخـــارين ينقلون إلى مستوصـف الحى الإصابات البسيطة .. وينقلون الأكبر إلى قصر العينى وأنشأوا وحدة للتبرع بالدم ..

بدأت الأمور تهدأ .. عادت تشق طريقها إلى بيتها لتتابع النتائج وتنتظر تكليفا من عملها بمهـمة .. الشوارع أهدأ .. أرقام الضـحايا والعمارات التى انهارت تتزايد .. الهرم يربض فوق هضبته ينبعث منه ذلك الإشعــاع الخفى الذى يجـعلها تراه وسط الظلام ومهـما اشتد . شـرفتها تأتى بالمشــهد العبقرى لـلغروب عنده .. الهاتف رغم تواصل تقطع خطوطه فى أغلب القــاهرة يصدر دقــات أقرب

إلى إشـارات تحاول أن تتـبين لهـا أى دلالات . الدقات متقطعـة ولكن تحاول التـواصل .. ربما استرد حـرارته رفعت سماعـته .. ران صـمت ثقـيل ثم جـاء من بعـيـد هس .. حس .. كـأنه تنفس متلاحق كـمن يمـلأ منفـاخا بـهواء .. شئ يحـدث بالفـعل داخل الأسـلاك .. نادت تسـأل عـمـن يختنق .. ومـن أيـن يـتـكلم .. يسـمعهـا أو لا يسمعها الهس .. أو الحس كـأنه يأتى ممن يحمل جبل المـقطم فوق حنجرته .. بدا لهـا الحس يصدر حروفـا وأنها تستطيع أن تلتقط منه كلمات .

أنا السـيدة مـن جبل حلوان .. مسـاكن المـصنع ـ أتكلم من المكتبة ببرج مصر الجديدة الـكبير .. جئت لبيع لوحات البردى ـ البنت وحـدها فى البيت .. وأبـوها فى وردية المسـاء ـ من تحت الجـبل لا أعـرف من أين كـوة ترسل شـعـاع نور وهواء .. و .. وتلاشت كلمات أخرى لم تسمعها فى جوف صمت عميق .. نادت عليها .. كررت النداء لا اسـتجابة .. لم يعد هناك حس ولا هس .. رسالة اسـتغاثة حقـيقيـة أم سراب أمل وسط المأساة .. انتـبهت للتليفـزيون يذيع أحدث بيـانات الخسائر فى الأرواح والمـبانى .. أحدث بلاغ إنهـيار برج عمـلاق بمصر الجـديدة ـ تحول فى ثوان إلى جبل من الأنقاض ـ بدأت إجراءات إنقاذ الضحايا .. هل جاءها نداء سيـدة من هناك .. كيف تتكلم من تحت جـبل الانهيـار للبرج الشاهق كمـا وصفته الأخبار؟! لمـاذا تبدو لها هزيمة المسـتحيل ممكنة؟ روحـها القـديمة هل عادت لهـا؟! سيدة .. اكـتشـفت أنها تهـذى بالنداء عليـها وتـسمع أصـداء لنفـسهـا أو للصـوت الذى استمعت إليه عبر اسلاك الهاتف تتردد فى فراغ ليل منير بقناديل خفـية يتجول إليـها الشعاع الـهادئ ويرسلها الهرم فى سـاعات بعينها .. قفزت الكبارى .. وامتلأت سيارتها بالطاقة التى تريد بها أن تحصل على يقين بوجود امرأة تحـيا وتتنفس تحت جبل البرج

المنهار اسمها سيدة ومن قلب المـوت أرسلت رسالة استغاثتها .. المشهد المروع لم تشهده من قبل ولا فى أقسى أفلام الكوارث الطبيعية .. استحالت الرؤية تماما وسط ضباب تراب الانهيار واختنقت به الصدور - الصرخات التى قالوا أنها صاحبت الانفجارات اللحظات الأولى للانهيار تلاشت وحل محلها أصداء أنين يبدو وكأنه يستجدى أنفاسا أخيرة للحياة ثم توارى كل شئ وسط صراخ الأهالى الذين تدافعوا وأغلق بالبشر الميدان والطرق المؤدية إليه - عمليات الإنقاذ لم تبدأ بعد وسيارات الإسعاف والإطفاء والنجدة تحاول أن تشق منافذ لها..

سألت :

- هل يوجد بالبرج مكتبة ؟

وسط الهول حصلت على الإجابة بصعوبة :

- نعم .. تشغل الدورين الأرضى والمسحور .

إذن المعلومة صحيحة والصمت حقيقى وسيدة ليست وهما

جبل حلوان .. حى مساكن المصنع مع نفر من أهل البربا . قلبوا الليل نهارا .. بيتها وزوجها وطفلتها وأهل الحى كلهم ساهرون لا يعرفون لماذا غابت وأين موقعها على خريطة الأماكن الكثيرة التى تذهب إليها .

- معى رسالة منها .

لا أحد يصدق إلا زوجها الذى يعرف أنها تتعامل مع هذه المكتبة فى بيع رسوم بردياتها .

عدنا لمتابعة عمليات الانقاذ .. فاحت رائحة الموت ونشر الحزن خيمته السوداء - الدقائق تمر كدهور تجمدت بالرعب - فشلت الكلاب اليابانية وبعثة خبراء أوربية وبدأت الجرافات تعمل والجثث .. تتمزق . أبلغت قائد عمليات الإنقاذ بالرسالة التى تلقتها من سيدة - وسط الجنون الحادث ظننى علامة أخرى من علاماته

ـ يبدو أن مشهد الموت جعل الرحمة تغشى القلوب وتخدرها لتحتمل الألم ـ تعامل مع الحاحي برفق وأكد أن مراحل البحث المتتالية كشفت استحالة بقاء أحد على قيد الحياة .. انقضى يومان.. وزحف الثالث ميتا كعشرات الموتى الذين أخرجوا فمن بقى بعد حيا ..

ســـيدة

نداء موجع مجهد محبط يرسل حبالا أخيرة لتشدها وتصعد فوق الصوت وتقوى وتواصل الانتظار ـ أهالي الجبل لا يملون النداء معي والبحث عن منفذ ربما أقرب إليها .. يردد عقلى تساؤلات توسع طاقات الأمل للمعجزة التى لابد قادمة .. ترى أى طاقة ترسل الهواء والنور إليها ـ وهذه الطاقة فى مكان ما حولها ـ أم أنها الطاقات التى تمتلكها العقول والأرواح التى بات الإيمان بامكانية تجاوزها الموت إلى حياة أخرى يقينا .. من أين يأتينى هذا اليقين بأنها حية تتنفس وستخرج كمالك الحزين تتقافز فوق الأطلال وتعلن امكانية المستحيل .. ولكن من يدرك ويعرف السر والشروط .. وهل الإمكانية تحدث بمعجزة إلهية بحتة أم تنضم الشروط .

واصل أهل جبل حلوان حكى حكاياتها كأنهم يطاردون بها طيور اليأس ويملأون صدر الأمل بالحياة ويدفعون دهور الانتظار الثقيلة كلما تراجع الوقت وارتفع صوت يقول ـ حتى الجثث خرجت كلها .. كيف يبقى أحياء ..

وأخر مهندس من مهندسى الأجهزة الحساسة لرصد الأصوات فى الأعماق البعيدة يستعد لجمع أدواته والانسحاب ناشدته أن يعطى سيدة فرصة أخيرة . كان قد سمع منها حكاية الرسالة التى تلقتها ألف مرة ولكن لا بأس من مرة أخرى .

ترجوه .. تهدد أن تأخذ الأجهزة بالقوة وتواصل.

- ولكن بعد ثلاثة أيام مستحيل .

قالت له مخلوقات البـرابى لا تموت ـ فالكد والإخلاص والوجع والصبر والألم و .. كلها تربى رئتيها تربية خاصة فتلد الهواء من صدرها وتتنفس .. وهى تحـرث وتبذر وتسقى وتطرح الثمـر نما لها فى مكان الذراع والقـلب والأنف والعين والعقل ألف .. سـيدة شجـرة الجـميـز المقـدسة التى تحـتضن المـاء والهواء بداخلـها وجذعها موصول بالسماء وجذورها فى مركز الأرض .

أشفق على خرفها وعلى نهـر التوسلات القادم من عينى طفلة تعلقت فى ذراعهـا - أعاد الأجهزة وأعاد الجس باتـجاهات جديدة ناحيـة الجدار الخلفى للمكتبـة .. وهى تشجعه وتعـاونه تقسم له ولها - لـو أنها ابنة أصـيلة لكل ما جـاءت منه ستـصمد وتــجيب وتخرج بالعلامة .

عاد المـيدان كيـوم الحشر والناس تتـجمع على النبـأ المذهل يبدو أن هناك بالفـعل حيا مازال يتـنفس.. الصيحات والتكبـيرات ترج الميدان ورأس يطل من فـرج شق خفى وسعوه بالآلات رغم إغمائها كان طرف إصبعها مازال يحفر بوهن. وهج الفرحة طمس تفاصيل بقـية ما حدث ولكن التـصق بحدقة العين مشـهد خروج سيدة صحيـحة بلا خدوش ورفعها إلى سيارة الإسـعاف ومشهد الناس تتدافع وتتلاحم لتقدم لها يدا .

بين كثير مما قـيل وحكى عن لحظات الخروج عادت المعجزة تخـتلط بالأسطورة .. اتفق جمـع كبـير أنهم شـاهدوا فوق بقـايا الأنقاض طائرا غـريبا لم يروا له مـثيلا من قـبل ظهر فى الفـجر يتقافز فوق نبع ماء ولا يعرفون من أين جاء .. قال قائل منـهم أنه العنقاء الذى سمـعوا عنه فى الحكايات بمنقاره الطويل المسـتقيم وريشتى رأسه الممتدين إلى الخلف تحـمل جسده الرشيق بـساقان رقيقتان لم يروا أطول منهما.. جدة عجوز جاءت مع الخلق - رغم

عيونهـا غير المبـصرة أقسمت أنهـا رأته يومها مثل مـا ظهر فى صباها فى أيام لها موعد .

بعيون مفتوحة وعـقل واع رأت ما لا يفسر إلا بمعجزة أو بأن يفهم ويستـوعب المعنى عندما لا يكف المعلمـون المخلصون فى مدارسـهم والنساك فى صـوامعـهم والكتاب فى أوراقـهم وعلى شاشاتهم وأسواقهم وساسـتهم يؤمنون ويعرفون أنه لا ينجو من الطوفـان إلا من شـرب النور وعـلم وتعلم وعلم وكـذب الزمن الفاسد وضده جـدف .. انهم ينمو لهم عظام لا تتكسر ورئات تلد الهواء وتتنفس وعندما تقع الصـروح الواهية يخرج كل من شرب النور حيا .

وهى تكتب بالكمبيوتر سطورا ليست أخيرة .. من الحدث الذى حدث .. والأحداث التى يتكور بطن الأرض بحملها ..

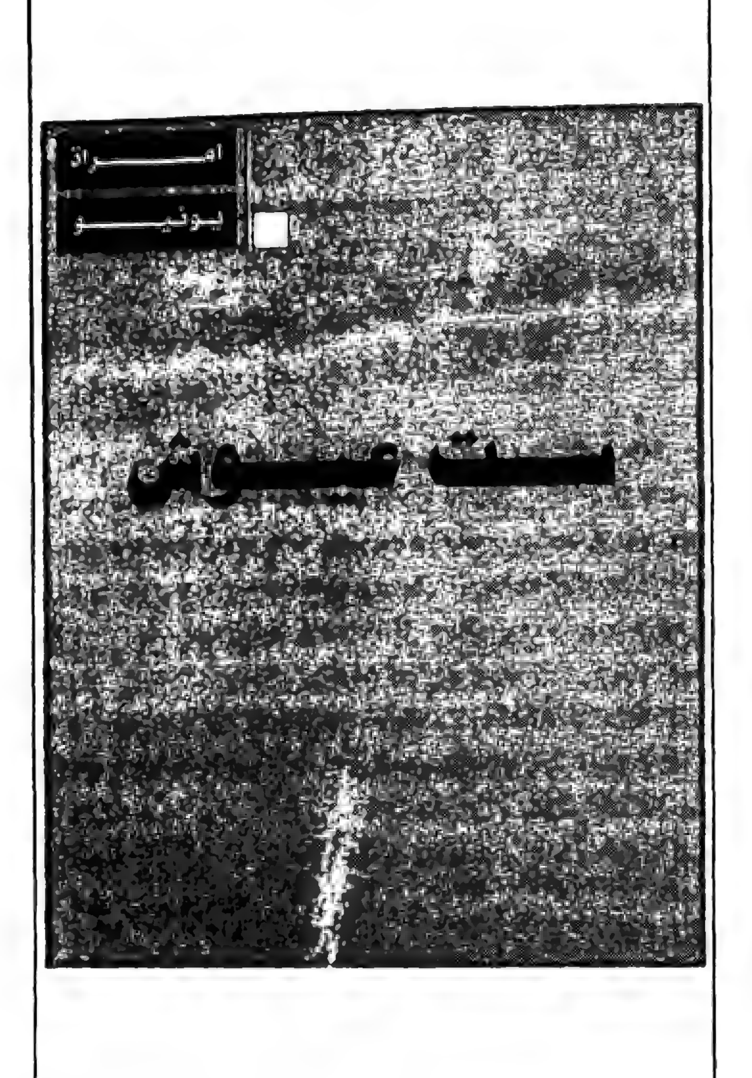
قال لها ابنها :

ـ هل بالإمكان أن أشارك وأكتب جملة يبدأ بها الفصل القادم .

قالت :

ـ نجرب

إنهـم يقـــولون عـنك يا أوزوريس .. ولـو أنك ترحـل إلا أنك تستيـقظ ثانية ـ ولو أنك تموت إلا أنك تبعـث مرة ثانية .. قف .. انهض .. ايزيس تحبك .



. بجدية لا تناسب أعمارنا الصغيرة كنا نفعلها حبا في جدتنا .. أن ننام بعين واحدة ونبقي الثانية مفتوحة ترقب الكون وتنتظر الضوء ولو استطعنا لذهبنا نأتي به من وراء البحر .. فقد أصبح يقينا أنه طالما هناك نور فستتنا عيوش لن تموت .

لا نحتاج نداءها علينا ولا نفهم ما تقوله ستنا أن النهار والنور يناديان عليها وما إن يطل الفجر حتى نسمع إيقاعات عصاها تدب في باحة السطح الواسعة وصرير باب الحمام وصوت إفراغ مياه وأصدق أنها لابد في الليل وكما تقول لنا شربت البحر وقابلت الجنيات وعرفت منهن كل ما نفعل ونخاف أن نكذب لأنها لابد ستعرف وإذا غضبت ستحطم رءوسنا بعصاها . هذه العصا التي تعود من دورة المياه تتساند إلى ستنا فقد حفظنا منها أنها لا تستند إلا لمن خلقها .. وكنا لم نخرج من قشر البيض كما كانت تصفنا يوم جاء ابنها موافي بعد غيبة من غيباته يلوح برزمة أوراق خضراء يطيرها كالعصافير في الهواء ، ويقول لها إنه قد آن الأوان أن تستند إليه وتعرف أنها أنجبت ولدا ليس له مثل - وستي تقاوم محاولته لاحتضانها كادت كاميرته المعلقة في رقبته أن تفتح رأسها ودفعته فوقع على ظهره ودقت عصاها في صدره واستندت بمرفقيها فوقها وقالت له :

ـ من يسند الثـاني ياابن الزواني ـ أخبـارك يأتيني بها البـحر والريح والـطيـر وعكارتك يطفـح بهـا الناس وحكايات الـبنات والضيوف والصور وما يحدث في عـشش الجميل بعد أن تتغطى بالعتمة وتبخها .

وهو يجمع القطع التي تناثرت إليهـا آلة تصويره كانت تواصل ضربه فأخذ السلم قفزا ووراءه أرسلت لسانها وأقسمت أن تقطع رجله لو عاد .. وعندما سافرت إلى أمـي في زياراتي القصيرة لها في بيت زوجهـا وسألتني عن جدتي قلت لها « أصـبحت زواني » فضربتني رغم أنني حكيت لها مـا حدث بين ستي وابنها ـ وقالت لي « إياك أن تنطقيها ثانية أو تنطقين بما لا تعرفين » .. وخفضت صوتها وقـالت لصديقة لها اعـتدت أن أرى بينهما فناجـين قهوة مقلوبة :

ـ قالوا وقالت إنه ليس ابنها .. وإنهـا جاءت به من الملجأ .. ولكنه ابنها أنكرته لمـا تعبت من شقـاوته وخابت في إصلاحـه وسمعتـها تقول ابن الكره والغصب ابن حرام .. وكل عيل له أب غاب أو أم كانت تأخذه في حـضنها وتربيه وتـشتد عليـه كأنه الولد كمـا تمنته .. الله اعلم.. يبدو أنها بقدر ما تعبت وانكوت بالنار انكشف عنها الحجاب .. كنا نسـمع منها مـا يجعل الرأس يشـيب رغم أن أكثـره لا نفهـمه .. والغريب جاءت الأيام بما جعلنا نصدق أنها كانت تقرأها أو تحسها أو تراها بعين داخلها وكانت تقول إنها من سلسال ذاهب وسلسال قادم في كل من شرب النور وفـهم وعرف .. وعلى كل ما كـانت تفعله من عجب كنا نخشاها ونحبها ..

وأشارت أمي إليّ وأكملت لصاحبتها :

ـ بعـد طلاقي من أبيـهـا وزواجي وجـدتهمـا ـ هي وجـدتهـا تحتاجان بعـضهما .. الحقيقـة تمنيت أن تكون البنت من سلسالها و...

تنبهت أمى أن انشغالى غير حقيقى بأوراق ألعب فوقها بأقلام ملونة - فخفضت صوتها أكثر وواصلت وشوشتها لصديقتها وكانت محاولاتى لفك ألغاز العالم والعثور على إجابات تريح رأسى المريض بدا أن يعرف ويفهم قد حولتنى إلى جهاز التقاط لكل ما يحدث حولى .. واختلطت جدتى عندى بالبحر وأساطيره.. ومثل هوسى وهربى لاحتمى بالبحر واختبىء بين موجاته ساعات النهار بطولها كان حبى لكل ما تفعله وتقوله جدتى .. وحتى أن طلاق أبى وأمى كان معناه الوحيد أن استقر فى بيت ستى وأستريح من خناقاتهما ونقلت أشيائى القليلة فى حقيبة صغيرة إلى بيتها وكان من البيوت الخشبية العالية - يطل على البحر وشاطئه الطويل ورماله الناعمة البيضاء ونخيله الأفرنجى الذى كانت جدتى تعشق طوله ورشاقته وتقول إنه كانت لها قامته .

وكانت تيجان النخيل تداعب السحاب وتطل من شبابيك البيوت تتفرج على ما يحدث داخلها أما نحن فلا نستطيع الفرجة إلا بعد أن تنام جدتنا .. كنا نصحو على أطراف أصابعنا وتخرج نشوى - ابنة عمتى فساتين ستنا.. وتقف أمام المرايا تبدل فيها وتدهن وجهها بأصباغ عثرت عليها فى علبة قديمة من العلب التى تملأ الدولاب .. وكانت هوايتى أن أجلس داخله وآخذ فى يدى بطارية اليد الصغيرة وأقلب ما فيه من مشغولات فضية وعلب ذهبية مبطنة بالقطائف الملونة وفصوص وأحجار وقطع فراء صغيرة ومروحة من ذيل طاووس وقبعات لها ذيول وأغطية شفافة وأشياء حكت ستنا أنها ارتدت منها فى احتفالات بورسعيد بمجىء هدى هانم شعراوى وصفية هانم زغلول .. وما أتفرج عليه فى دولاب ستى الكبير بضلفه الضخمة ومراياه البيضاوية

يحول مـا اسمعـه من حكاياتها إلى صور تتـحرك أمامى وكـأنها حـواديت جديدة تطل من شـبابيـك صندوق الدنيا وبين أحلى مـا رأيته من حكايـاتها إنها كـانت من فريق المقـاومة النسـائية الذى رتب أن ينزل القاهرة ليـشارك هدى هانم خطة خطف سعـد باشا والعـودة به من منفـاه فى جـزيرة سـيـشل ـ وقـالت لنا إن بين أوراقهـا فى الدولاب خطابا بإمضاء الزعـيم يحمل تحية وسـلاما لنساء بورسـعيد وعلى وجه الخـصوص لستى عيـوش ـ وكتمت نشوى ضحكها ـ وكان لسانها طويلا مثلها ولما ذهبنا إلى فراشنا قالت لى :

ـ سمعتهم يقولون كبرت وذهب عقلها .

● وتعاركنا بالأيدى حتى ضربتنا ستنا .. وربما المرة الأخرى والوحيدة التى ضربتنى فيها يوم حاولت أن أحسب داخل الدولاب عدد أمتار الدانتـيلا البيضاء التى مازالت تمـلأه وكانت تقول إنها ثوب زفـافهـا الذى جلبـه جدى عـبـد الله من الهند مطرزا بزهور معطرة مازال عطرها الذى له رائحة المسك تملأ الدولاب وخيوطه الذهبيـة لم تصدأ من يومهـا .. ولم أستطع فـتح الباب من الداخل وأوشكت على الاختناق ودققت بعزم حلاوة الروح وفتحت ستى وأوجعتنى بلسانها وبعصـاها ورغم ضربها فكأننى ارتحت يومها أن سرى انكشف ولم أعد أكذب عليها .

● وستى تمسح بـيدها رأسى نخله تطل من شباكـها وتحرص على سقى رأسـهـا إذا غاب المطر عنها ، سمعتـها تتكلم وسارعت إليها أسألهـا ما تريده .. قالت لى إنها تحدث نخلتـها وعرفت منها أننى استطيع أن أصـاحب النخل والبحر والطير والشـجر .. وفى ساعـة من الساعـات التى يصفو مـزاجها ويرق وتسـكن وتصبح مثل البحر الطـيب قالت لى إننى أقرب العيال شبـها بها .. شـاطره

ووحيـدة وحقانية وقـوية ولابد يوما سأعـرف مثلها أقـرأ القادم وآتى بالبـعيـد شـرط أن يكون النور طالعـا ـ ولم أفـهم شرطهـا وكـفتنى فـرحة أن أكـون مثلهـا .. وأكـثر مـما كـبرت طفـولتى بانكسـارها المبكـر تضاعف عـمرى باجـتـهادى أن أفـهم وأتعلم واقتـرب منها وأجـمع النور لها وأحـوشه فى حـصالتى الفـارغة وأخرجه عندما تكون العتمـة بلا قمر أو عندما تغيب الشمس وراء الشبورة ففى النور تتبدل ستى وتضحك من قلبها .

وكـما تقـول النور يشـرح صدرها ويرم عظمـهـا ويعافـيهـا ويشفيهـا حتى أصبحت أصدق أنها مع كل نهـار جديد تولد شابة وعفية .

ومثل انضـباط ساعة الحـائط الضخمة التى لم أرها تضـبطها ولا أذكر أنى رأيتها تتوقف أبدا ـ وكـانت تقول إنها كانت لجدى ـ كانت تفعل جدتى

ـ فـبعـد أن تغادر دورة المـياه تكون قـد توضأت فنأتى لهـا بسجادة صلاة حريرية من شوارها الذى كانت بقاياه تملأ السطح والحجرات الأخرى ـ وكان يحكى عن أيام عزها ـ التى كانت قليلا ما تتـحدث عنها ـ وعلى سجـادتها الجميـلة التى تمتلىء بالزهور تسجـد وتطيل السجود فـتتفـتح الزهور وتمتلىء الحـجرة بعطر الزهر ـ وتهلل روحى وأسارع لأرتب فراشها وأعد وسائدها التى لهـا ملمس القطط ورسـوم طواويس وببـغاوات ـ وعلـى أكبـرها يتمدد فى دعة أسد تداعبه لبـؤة ـ وأكمل أعداد جلسة جدتى فوق كنبتها التى وضعتها تحت النافذة الواسعة والتى يدخل منها البحر والبوغـاز وطرف البحيرة مـن الناحية وتمد سـاقيهـا اللتين تعلق جلدهما فـوق عيدان كبـريت .. وتفرد ذراعيهـا وتدهنهم بالشمس وترقب البـحر وتنصت له وتقـول إنها تعـرف منه ومن النوارس

حكايات الناس وأخبارهم .. وتجس الريح وفى الشتاء عندما تنادى علينا لنجمع الغسيل من مناشره فى فضاء السطوح الخلفى بعدها بقليل يسقط المطر .. وتنصت جدتى للموج ولما تقول إنها حبلى بالغدر نعرف أنه عندما يكتمل الظلام سيغرق الشاطىء ويحطم كبائنه الخشبية .. وتعبىء أنفها بالهواء القادم من ناحية البحيرة وتحبسه فى صدرها ثم تطلقه وتقول :

ـ مازال بيننا وبينهم زمن ..

وتبسمل وتحوقل ولابد أن تنهى الكلام بالصلاة والسلام على النبى بعد أن تطلب منه أن يشق بيننا وبينهم بالعسل واللبن الحليب .

وأسألها : من هم يا جدتى .... ؟

وعلى قدر حدة بصرها كان سمعها ثقيلا وتقول دون أن تسمعنى :

ـ من بعيد أصبح للماء كدر وزفر وملوحة ..

وأضمه إلى ما لا أفهمه وأجمع سجادتها وتذهب إلى نافذتها وتجلس على كنبتها التى سبقتها إليها الشمس وفرشتها بغطاء منسوج من خيوطها وآتى بإفطارها اليومى من الجبن الأبيض العذب والشاى بنعناع أخضر أقطفه من حوض السطح والعيش الأسمر الذى لا تمضغه إلا جافا وساخنا بعد أن تحمصه فى فرن حجرة الكرار. كانت تقول دائما إن لها فك أبيها العريض وأسنانه القوية .. وكل مرة كنت أنصت لأحاديث جدتى عن أبيها كنت ادعى السمع بها لأول مرة لأسمع وأعرف الأكثر عنها وعنه ولتفرح فقد كانت عندما تحكى عنه تعود طفلة تلعب على رصيف الميناء وأتذكرنى وأتذكرها نتقافز على إفريزه .. واختلفت حكايات كثيرة وزادت ونقصت فى كل مرة استمعت إليها إلا حكاياتها عن

أبيها وحكايات الآخرين عنه ، وإنــه كان من العائلات التى أسست المدينة وأنه كـان مشهود لهم بالـحق والعزم والعلم .. ولم يكمل جدى تعليمه فـى مدرسة المهندسخانة ليركـب البحر وراء تجارة أبيـه ولأنه كـان وحيـد أمـه على بناتهـا زوجـوه بعد الابتـدائيـة وملألهم البيت بالصبيان وقالت أمـه أن دعوتها استجيبت فى ليلة انفتـحت لها طاقة القدر .. وتعـود من سرحة طويلة ونفس عـميق تأتى به من بعيد لتقـول إن أباها ورغم الزوجة والبنين ورضا أمه وإقبال الدنيا عليه لم يذق لها طعما حقيقيا إلا لما أحب « الورد » ـ وكنت أعرف أننى أحـمل الاسم عن جدتى الكبيرة أم عـيوش التى أحبها جدى الكبير وتزوجها على أم أولاده .

ـ هييه ... وما بعد يا ستى ... ؟

ولو بامكانى أن أقفز فى حلقهـا وأخرج الحكايات دفعة واحدة لفعـلت أى شىء لتواصل الحكى .. وأجىء لهـا بصينيـة قهـوتها وكوبهـا الفارغ لتملأه بالشـمس ويطول صفاء مزاجـها وتواصل حكيهـا وأطل على البحـر وأحاول أن أعـرف كيف تقرأ الـمكتوب فوقه ـ فهى تطل وتطيل النظر إليه وتقول :

ـ حكوا أن ضـرة الورد فـرت الغيـرة كـبدها ـ فـالحـاج أحب زوجتـه الصغيـرة وأسكنها ضلوعـه ويا سبحـان الخالق الوهاب قالوا إنه أودع نفســه فيها فولدته الورد من قلبـها فى صورة بنت اسمها « عيوش » .

ولا بد كلما سمعت القصة أن أصيح أسألها :

ـ أنت يا ستى ... ؟

ولا تسمعنى وتواصل قراءتها للمكتوب على وجه البحر ..

ـ ولما أصيبت الضرة بحمى الـغل كادت للورد وسممت أيامها وسـخن ، واحتبس حليب صدرها ، وكان الحاج أعز على المحبوبة

أن تكدره بوجـعـهـا فرحلت سـاكتة عـلى همهـا وعيوش مـازالت ترضع .. وحكوا أن الضـرة لو عـرفت كـيف سيـحب الأب ابنتـه اليتيمة لعاشت تخدم أم عيوش وتحميها ـ فبعد موت الورد اعتزل الحاج الدنيا وأعطى نفـسه للوليدة وللبحر وتجـارته .. ولم يقصر في مصروف بـيت أو ولد ولأجل خاطر عيوش فـتحوا بمسـاعيه أول مدرسة للبنات في الـناحية ـ والتقط لعيـوش أول صورة قبل أن تكمل الرابعة بـعد أن أجلسهـا وراء مكتبه ووضـع على رأسـهـا طربوشا أحمر صـغيرا قال إنه تحية لذكـائها ورفض أن يصـورها على هيئـة الصبيان كمـا كانوا يفعلون أيامهـا مع البنات .. وكانوا يحكون ويتعجـبون فكأنه كان يعرف إنه لن يطيق أحـزانه الثقيلة فحتى أكـملت اليتيمـة العاشرة كان قـد سقاها الدنيا وسـافر بها وشرق وغـرب وكان كـبار الـبلد يحكون نوادره ويضـحكون لـما يسمعـونه يقول إنه يملأ بنت قلبه بالنور ولو بيـده لجاء بالشمس وأسكنها داخلها حتى لا تعرف العتمة سكتها .

ولا أكاد أكمـل الفرحة بصورة بيت للشـمس تسكنه في صـدر ستي حتى تظلم الدنيا حولي عندما يرتجف صوتها ويخفت ويكاد يغيب في حلقها وهي تحكي كيف مات الحاج والـيتيمة صغيرة لا تعرف معنى الـموت ولا صدرا حنونا غيره .. وبكت علـيه المدينة وتناقلت أفـضالـه ثم تاهت سيـرته وسـيرة ابنتـه وسط الأيام .. ويروح صوت جدتي وتتوه الكلمات على أذني وأخاف عليها ولكن أتذكر أن النور سـيداويهـا وأجيء بكوب الشمس فـتفهم قـصدي وتربت على كـتفي .. ولمـا تمتص منه الشـمس التي امتـلأ بها .. أضـحك وتضـحك لأطمئن وأهـدأ واحضـر غـلاية الماء لـتغـسل وتمشط شعراتهـا الخفيفة الناعمة وكـانت ابنة عمتي نشوى التي لا تكبرني بأكثر من عام تـعرف أسرار لا أعرف من أين تأتي بها

وهمست لى أن الحناء هى التى تلون شــعر جدتنا مع أنى لم أرها أبدا تدهن رأسهـا فهى دائما نظيـفة بياضــها يضوى مـثل كل ما حولها تحبه مغسولا يبرق .. ولابد عندما يحدث المد ويغرق البحر الطريق أن تستيـقظ ذكريات طفولتها وتحكى كيف أن نحـر البحر يسافر بالمدينة ويوسعهـا وقد ولدت جدتى والبيت عند طرفه ولا يفصله شــاطىء وطريق وكبائن وتتذكـر سير أحبـاب لها وتطلب منى أن أفتح كل زجاجة يلقيها البحر على شواطئه وأن أحضر لها الأوراق التى أجـدها داخلهـا .. وعلى قــدر دهشتى عـلى قدر مـا أحبـبت وتمنيت أن أحقق حلمهـا بأن أجد لها ورقة داخل زجـاجة حتى قبل أن أعرف ما ذا كانت تبحث عنه .

ومن أكثـر ما أحببت فى طفـولتى كان بحثى داخل الزجـاجات التى يرميـها البحـر على شواطئـه ومثلها تجـهيز كـوبها الأبيض الشفاف ويدى الصـغيرة تتحكم بصعـوبة فى الصابونة النابلسى الكبـيرة التى لا تغـسل بغيـرها أكـوابها وطاقم قـهوتهـا الأبيض المنقوش بحروف مـذهبة والذى يستقر إلى جانب مـوقد السبرتو الصغيـر فوق الصينية النحاس المـستديرة وتختبر ســتى بريقها ونظافتهـا بانعكاس صورتها فيـها ـ وأضـع فوقهـا كوب الشمس كمـا أصبـحنا نسميـه واجلس أرقبـه بعد أن تشرب مـاءه بالزهر وتضعــه فارغا على حـافة النافذة ووسـط سرحانهـا أو حكاياتها ترفعه إلى فمها وتمتص منه شيئا تلوكه وتمتصه مثل ما تفعل مع حلقـات العسليـة أو المكعبات الصـغيـرة التى تقـسم إليهـا ربع الهريسة الذى اشـتريه لها من الصندوق الزجـاجى الشفاف الذى يجوب به عم الشحات الشاطيء طوال النهار وينصبه فوق الحامل الخشـبى لنعطيه نصف الفرنك ويلف الهـريسة فى ورقة بيـضاء ولابد فـوقهـا واحد من أصــابع زينب وخرطة بسـيمـة وفوقــهم

السلامـة والأمانة لسـتى وأظن دائما أن هديتـه كانت أكـبر مـما اشتريته ولكن فرحتى الحقيـقية لأن محبة جدتى جعلت كل الناس على البحر أهلى وناسى .. وأرقب جـدتى وهى تمص الهريسة مع أن أسنانها سليمـة وترشف قهوتها وتشرب سيـجارتها ولا تنس كوبهـا الفارغ .. تجس وتبتلع مـا ليس فيه ومرات تقـول الشمس دافـئة ومـرات حـارة أخرى باردة - وفى أيام أجـازاتنا وبعـد أن ننتهى من واجباتنا تدعونا لنجلس معـها ويشرب جسمنا الشمس مثلها وأضحك من نشوى فالشـمس تجعل لحمها فى لون الأرانب بعد سلخها وتغيظنى نشوى لما تقول إننى أصبح سوداء كالعتمة وتحسم ستى بطرف عصاها اشتـباكنا باللسان وتقول إن الحرباء شقراء وسـمراء ولها كل الألوان - المهم مـاداخل حجرة الكرار - وأقول إنه لم يعد فيـها إلا بقايا من الأرز والزيت والسكر والسمن ولم تعد تمتلىء كـما كنت أجدها ونحن أصغر تخـتبىء فى ألعابنا بين جوالاتهـا وقدورها وصفائح جـبنها وزيت زيتونهـا - وتقول جدتى وهى تشير بطرف عصاها إلى صدرى :

- اللون الحقيقى يأتى من خزين الكرار هنا .

وأعرف أنها لن تنهى كلامها إلا إذا قالتها لنا حتى حفظناها عن ظهر قلب ، ويا بخت من خزن النور قبل أن تأتى العتمة .

وتكرر جدتى شرب كوبها الفارغ ودهن رأسـها وجسمها طالما الشـمس تسكن حجـرها وكنبـتهـا وعندما ينزل الغـروب وتؤدى صلاته يعود عطر ورد سجادتها يـملأ المكان .. وأرقبها لأتأكد أن لها ضيـا فى العتمة وكان نور خافـت يشع منها ينضم إلى ضوء المصـباح الهادىء وبعـد أن أنهى مذكراتى تطلب أن أقـرأ لها فى كتاب من كتب جدى عبد الله وكانت مـكتبته تملأ أقرب حجرة إلى حـجرة جـدتى - ولا أعرف لمـاذا كان يخـيل إليّ كلمـا نامت فى

فراشها وانكمشت ولصقت ظهرها بالجدار الفاصل بين الحجرتين أنها تستند إلى جدى لتنام ـ وعندما كنا صغارا لم يكن مسموحا لنا بدخول مكتبته ـ وكانت هى تنظفها وتسقى أصص الريحان التى تملأ قاعدة شباكها ـ ولما كبرت أعطتنى مفتاحها المعلق فى صدرها لأفتحها وأدخل النور يغسل الكتب ويطيل عمرها ـ وأطيل فى ترتيبها وتنظيف زجاج وخشب مكتباتها الجوزية وسجادتها العجمية وأتأمل صور أجدادى فى براويزها الأرابيسك الخشبية ـ وأعرف أن هذا جدى الكبير ـ وهذا جدى عبد الله ـ وصورة الطفل الجميل ـ وجدتها فى برواز مكسور داخل أحد الأدراج لابد أن تكون لابنها ـ فلم أره آلا لما كبر وفى مرات زياراته القليلة لها ونسيت ملامحه .. ولابد أن لستى هذه الحلاوة الباقية فى كبرها لأنه كان لها ملامح أهلها .

وأرقبها وهى تتحسس الصور والكتب والمكتبات وتربت عليهم وكأنهم من لحم ودم وتلعن الزمن الذى أخذ معه حدة بصرها وروقان بالها اللذان كانت تقرأ بهما لنفسها ـ ويسبق نشوى لسانها الطويل وتهمس لما نتسلل فى الليل داخل صندوق دنيا دولابها وتقسم بالنعمة ورقبة جدنا أن ستنا لا تعرف القراءة ولكنها تريدنا أن نخافها لتقطع قلبنا فى المذاكرة .

وكنت قد سبقت نشوى إلى بيت جدتى ورأيتها كثيرا تتحسس كتب جدى وتقلبها .. وصدقت أن من يستطيع أن يقرأ البحر والريح والمطر ويشرب النور لابد أن يقرأ الكتب .. وكانت فى الليالى التى لا يطلع قمرها يتكرر سؤالها عن أخبار المدينة وعن القادمين منها وتطلب برطمان دهان قديما له رائحة كافور نفاذ تدهن به جبهتها وأرنبة أنفها العالية وظهر رقبتها .. وتزجرنا لنذهب إلى فراشنا فى الجانب البعيد من حجرتها التى تتسع لخيل

تجرى فيها .. وتطلب أن ننام بلا حس يصدع رأسها وتعصبه بمنشفة وجه تكاد تغطى عينيها ويتناوب كفاها مفرودان الدق فوقهما وتفتح النافذة حتى لو اشتدت النوة وتشد الهواء شدا كأن باب صدرها مغلق وتحكى لأخرى كنت أظنها تجلس أمامها وأنها تراها وأنا لا أراها :

ـ فرحت اليتيمة لما ظنت بعد موت أبيها أن الدم لا يصبح ماء وأن أخوتها غير الأشقاء وزوجة أبيها أخذتهم بها الرحمة وأنهم أركبوها البحر فى الليل لتزف إلى ابن عمها الذى وعده أبوهم بها وأمنهم على وعده لما تكبر أختهم وتشبع من النور وتعرف وتفهم وتشتد ويأخذ عبد الله شهادته الكبيرة التى سافر لها وراء البحر .. ظنت المتعوسة أن السفرة كانت إليه .. ولما طلع النهار .. لا .. لم يطلع نهار أبدا لتلك الأيام .. طلع ظلام وظلم يوم ثان وعاشر .. وأيام لا تعرف عددها .. حبسوها فى قمقم لا تكاد تتبين ملامح الوجوه وما يحدث حولها .. ووسط حمى النفاس عرفت أنهم عقدوا لها على قريب لهم ـ لا .. لم يكن قريباً كان معرفة بحر وشرك مال وتجارة ـ أبعدوها ليأخذوا ميراثها من أبيها الذى قسمه بينها وبين البنين وزاد لها نصيب أمها فلحس بقية عقلهم ـ حتى كبار البلد غضبوا وقالوا : « حل بإبنته عقاب كسر الأصول وشاركوا فى الظلم بالسكوت عليه» .. وفى خانٍ كبير كأنه المسافرخانة القديمة .. الوجوه والحركة كثيرة والصادر والوارد أكثر والسراديب والسلاملك والحرملك تمتلىء برجال ونساء وبضائع وبيع وشراء .. والسوق مفتوحة لكل من يطلب ولكل ما يطلب والمشترون يقبلون .. وكل شىء مباح وراء الستر وتحت الغطاء بشرط لا من سمع ولا من رأى .. وشمت بنت الورد أول ماشمت رائحة العطن والزفر ومن طول ما ضربها الغريب

شج رأسها ومن يومها وضع نار الصدع فيه ـ ولا نفع فيه عشب ولا طب ولا حجاب « الشيخة مسعود » ـ لا أذكر اسمها ولا سيرتها بالتحديد ـ وما بقى فى ذاكرتى أنها كانت تداوى بالأحجبة والتعاويذ وتزيل الأعمال والكروب وكانوا يسمعون صوت سيدها الطيب يخرج من فمها ويجيب حاجاتهم ـ وكان اسمه مسعود ـ فاشتهرت به الشيخة وأقسمت ستى أن شرخ رأسها زاد لمامسته الشيخة مسعود ـ وقالوا إنها تهذى وطلبوا لها السماح وأقسمت أن نار رأسها لم يبردها إلا شرحة النور للعين وغسيله لما فى القلب من هم ومن حكيها عن اليتيمة فى غربتها كنت قد عرفت أنها احتملت وصبرت لأجل الولد وعينها على الباب المغلق تختبيء وراءه وهى تدبر ساعة للهرب ـ سبحان الله ـ تقول ـ كانوا يستحمون بالعطور ورائحة العطن تفوح .. والغريب يريد بابها وسكتها مفتوحة ويقرب الولد منها ويبعده عنها لتمتثل وتلين .

ـ ولما فاحت رائحة عطن قلبه تركت له الولد وفرت ـ ظنتها بلاد الله لخلق الله فلن تجد مرة ثانية أرضا ولا ناسا تعرفهم . ولكنها كانت بلاد الله لعبد الله الذى قلب الدنيا عليها .

ـ وتسكت ستى ولا تسكت عن حكيها إلا وأكاد أجن فأريد أن أعرف أكثر وأكثر عما قيل وما بعد ولكن دائما عند سيرة جدى يكون صوتها قد رق وذاب وتبدو كأنها تفرح وترتاح حتى لا تستطيع الكلام .. ولا أنام إلا بعد أن أطمئن أنها أغلقت شباكها ولصقت جنبها إلى حائط جدى وانتظم صوت أنفاسها ـ وبهدوء لا يقطع نومها الخفيف كالقطط كما كانت تسميه أخوض معركة لأخذ نصيبا من الغطاء الذى تحاول نشوى أن تأخذه لها وحدها وأضع وسادة بينى وبينها تحمينى ضرباتها وحركتها الثقيلة

وهى نائمـة بطول وعرض السـرير الكبيـر الذى كان على وسـعه تعتبره مـثل الدنيا الضيقة عليـها وكنت أنا وهى آخر من بقى من بنات وصـبـيـان العـائلة وكـان يأتى بنا إلى بيت سـتى أجـازات الصيف أو ما حـدث بين أبى وأمى أو فى بيت نشوى وكانت بنت أصغر عمـاتى ولأن عمتى الصغيرة كانت نفـشة وغندورة كما لم ينطلقوا اسمـها بغير وصفـها بالاثنين فقد لحـقوا وزوجوها بأول رجل تقدم لهـا بعد مـوت أبى نشوى التى هربت من قـسوة زوج. أمها إلى بيت جدتنا وكانت تناديها الغندورة الصغيرة وبنت أمها.. وكانت دائما تلـعن ساعة جاءت عندها لخروجـها الكثير وغـيابها الطويل بينما كـانت مكانتى عند ستى تكبر وأنا أحـاول أن أشرح لهـا ما بدأت أفـهمـه من كتب جـدى وكنت أسـتعـين بمدرسـاتى ومدرسينى .

وأجد فى عيونهم دهشة وحـبا واهتماما بى ـ وأظن أن واحدة من مـدرساتى قـالت لى كلامـا غريبـا معناه أنى سـأكبـر ويعلو شأنى.. ولما نقلته لجدتى وأنا أقرأ لها فى الليل قالت :

ـ إذا صح الزمن ولم تنم قوالبه وتقوم إنصاصه ..

ثم سرحت وقالت :

● رائحة الملوحة والكدر والزفر تهب من بعيد.

ـ وكنت أظل أقرأ لهـا حتى تدمع عيناى فـقد كنت أضع نظارة طبيـة سميكة منذ كـدت أفقد عينـى لما كنت مع أولاد وبنات حى البحر بنشـارك فى مشاغبـة الأبواب الأمامية لمعـسكرات الجيش الإنجليزى لـنخلى مؤخرة المـعسكر ليـتسلل الفـدائيون .. ونحن نسارع بالفزار كأسراب طيور البـحر ـ وفى شارع البحر الطويل الذى كانت بقـايا سيـارات العدو المـصفحـة تقطعه فى سـرعات مجنونة ضربتنى واحدة منها وفى المسـتشفى والضمادات تحيط

برأسي وأنا أبعد طرفها لتلتقط أذني ما يدور من حديث حولي وأقارب أراهم مرة كانت تقول جدتي لا تجمعهم إلا المصائب .. سمعتهم يقولون إن عقلها ذهب من أعمال الولد موافي وعرفت أنها تسكن السطح لأنه باع بيت أمه مفروشا بالشبر واختفى .. وفي مناسبة أخرى لاجتماع أسرتنا بعد العدوان الثلاثي بسنوات والبيت الذي تصدع بآثار الضرب وقع على أقارب لنا ـ مات بعضهم وجرح آخرون ـ ووسط اللمة حول أسرة الجرحى عادت سيرة موافي على ألسنتهم ولاحظت هذه المرة أنهم يتهامسون ويتلفتون حولهم كأن الجدران ستنشق ويخرج لها منها عفاريت تقبض أرواحهم

كان صعبا عليَّ يومها أن أميز هل وصول أخبار ابنها تجعلها تشم للبحر عطنا وزفرا .. أو عطن وزفر يحدث في البحر أو البحيرة وموت الأسماك الذي اكتشفناه فيما بعد والصرف الصحي فيها وانتحار الدرافيل على الشواطيء وتلوث الماء بقتل الأحياء فيه كان ينبؤها ـ كما كانت تقول ـ إن الولد هناك يكبر .. وعلى قدر ثقل سمعها ومحاولاتهم إخفاء أخباره عنها كانت تعرف أنه أصبح مصورا مشهورا وفي العشش والشقق يشارك في تصوير البنات وفي تجارة لبيع شرائط وصور سرية لا يفسرون ما فيها .. ولا أعرف لماذا أحسست أن خوفهم ازداد وأصواتهم انخفضت أكثر .. وأيضا ازدادت حالات ربو صدرها واشتبكت مع سعال سجائرها التي تلف دخانها داخل أوراق رقيقة بيضاء تقطعها من كراسة صغيرة اشتريتها لها من كشك «عم إبراهيم » الذي كان له رأس اخناتون المرسومة في كتاب التاريخ .. واعتقد كان له عمره أيضا وكان دائم إرسال السلام لجدتي مع كراسات البافرا وعلب دخان « ماتوسينان » وحلقات

العسلية وما أكثر ما همست نشوى « كأنه أحب ستنا أكثر من جدنا عبد الله » .

وما أكثر ما جلسنا إلى عم إبراهيم تحت شمسية البحر الملونة التى يفردها ليلا ونهارا أمام الكشك ويقول إنه تركها مفرودة منذ كان الكشك عند الشاطىء - فإذا جاءت الشمس ظللته وإذا جاء الموج حولها إلى عوامها وركبها ويحكى لنا أنه كان صديقا لجدنا بالروح وأن جدنا أحبها منذ وعتها روحه تنام فى حضن أبيها - ووعده عمه بها إذا وجد القبول والرضا عندها وكبر على قدر قدرها وتعزيزها - فسافر عبد الله مطمئنا ليتزود ويعود على قدر المحبوبة .. وعاد ليجدهم زوجوها فقلب الدنيا ووجدها هائمة فى الأرض التى أخذوها إليها فعاد بها .. وكانت التى عادت لم تعد عيوش التى أحبها - ضاع ابنها وعقلها منها وأخذ الباقى منها ما فعله أهلها وأخوتها بها وأصبح البحر والنوارس أصحابها والنور من رائحة أبيها .. وتمنى عبد الله أن يفقد حياته راضيا بشرط أن يعيد لها عقلها وابنها فركب البحر وراح وجاء به .. ولكن جاء بمن ... !!

يقول عم إبراهيم وهو يمضغ دخان سجائره - كان الولد قد شرب النخاسة والتلصص على اللحم العارى وبيعه - وحاول عبدالله مع عيوش أن يأخذا بيده .. كان الزمن فات وكبر وتبدل .

حتى صدقت أن عبد الله جاء بغير ابنها ثم انكرت أن بطنها حملته من أصله .. ولما غاب عبدالله وغرقت أخباره فى البحر وتأكد الولد أنه راح بلا عودة ولم يعد له كبير باع البيت الذى تركه لها بعقود مزورة للسكان وتركهم ينهشونها ويطمعون حتى فى سطحها وشوارها الذى لا مثيل له .. لولا قوتها وجبروتها ومن يعرفون أصلها الطيب ويحبونها ويعيد علينا عم

إبراهيم فى كل مرة يحكى لنا .

ـ أضع الكشك عند بابـها لأقـتل ابن خـسـيسـه يمـد يده على ما بقى لها .

واشتبكت حكايات عم إبراهيم مع الحكايات التى كنت أسـمعها من أمى وخالاتى مع حكايات كان الصيـادون يحكونها عند البحر وكنت أظنهم لا يعرفـون أنها جدتى .. وعرفت منهم أن جـدى لما حصل لسـتو عيوش عـلى الطلاق بالمحكمة صـار الأمر فضيـحة وأقسم البعض أنها ذهبت إلى المحكمة لتـستر نفسها وادعت على الغريب الذى لم يتزوجها فـوق نسائه الأربعة وأن الولد ابن حرام وعرفت أن أم جدى عبدالله أقسمت أن تقـتل روحها لو فعلها ابنها الذى لم يدخل دنيا ويتزوج بمن فقدت عقلها وشرفها وعادت من الغربة بولد لا يعرفون له أصلا ولا فـصلا ودخلت المحاكم حيث لا يدخل أبناء الناس المحتـرمة ومضغ الناس سيرتهـا وأصبحت على كل لســان لها حكاية مـختلفـة وأسرعت أمـه وخطبت له ابنة المحافظ ، ولكنه تمسك بستى فطلبت أمه أن يختار واحدة إما هى وإمـا عـيوش واختـار أن يخـرج ولا يعـود وترك لأمـه رسـالة يستحلفها أن تسامحه ـ ولعيوش رسالة وكتب لهم أنهم لو فتحوا عروقه سيـجدون اسمها محفوراً عـلى دمه .. وحكوا أنه كتب لها من كل الموانى وكان إذا لم يجد من يحمل لهـا الرسالة يلقيها فى البحر فى زجاجة .. ولما تناقل البحـارة والمسافرون عبر الموانى سيرة عـذابه والعجب من حكايات عشـقه استسلمت أمـه ووافقت على زواجه .. وأكملت ستى شوارها .. وكـتبوا له ليعود .. وقالوا إن الحاقدين عليـه رغم عذابه ضيعوا الرسالة .. وإنه حـتى اختفى آخـر أثر له ظل يزدد أسـماءها عـيوش وعـائش وعيش وعـيشـة وعـائشة وكل مـا نادها به وهى صبـيـة صغيرة يسـابقها بين

القوارب فــى الميناـ وتذكـر خالتى الصـغيرة وهى تحكـى كيف كانت وهى صـبية تمـلأ مع صاحباتهـا جذوع الأشجـار برسوم بعين تجاور عـينا ليكتبن بالرسم عائشة وعبـدالله .. وعرفت لماذا عندما تأتى سـيرة جدى لابد أن تطـل ستى على البحـر .. ولماذا يتكرر سؤالها عما يفعلونه بـالرسائل التى يجدونها فى الزجاجات التى يلقيهـا البحر على شواطئه ـ ومن يومـها وعلى كل شواطىء الدنيا التى يأخذنى عمل إليـها أبحث داخل كل زجاجة أجدها هناك عن رسالة وكـانت تقول إنه فى ليـالى المد وعندمـا يكتمل القـمر يمتلىء الشاطىء بهدايا الأمواج إلـيه وفى مثل هذه الليالى كان لا بد أن نصحو لنوره ويدخل القمر من نـافذتها ليجلس ويتربع فى حجـورنا ويطل البحـر علينا وتتعطر النسـمة بعطر ريحـان كانت مازالت تزرعه بيديها وتملأ بأوانيه الفخارية باحة السطح .

لا أعرف متـى وصفت القمر فى اكـتماله بقنديل البحـر الميت وتحدثت عن اقـتراب اكتمال عطن البـحيرة وزفر البـحر وعاودت الحكى عن الـعـرق الدسـاس وزرع الشـوك فى البطن والأرض وعيال الغدر والاغتصـاب وسلالة النخاسة وبيع اللحم وتصاوير إبليس المطبوعـة على الأرض .. والزمان الذى يفسد مـاءه وملحه وعيشه وزاده عندما تتلبس « التـصاوير الرأس وتشـجه وتصدعه وتسكنه المساخيط والسـخط ، وإن كان أحد يعرف آخر عنوان أو اسم لموافى .

وصاحت نشوى بشىء لم تكمله .. ولم تفلح تهديدات ستنا فى انطاقها وحلفت بالـيمين أنها لا تعرف له طريق .. وأقـسمت ستى على غيـر عادتهـا أن نشوى تعـرف وأنها قرأت عليـها العـلامات وشاهدت بقايا دهان وجههـا الذى تزيله فى بئر السلم وزجاجات العطر الرخيص و « شرقـة » الدنيا فى عينيهـا .. ولم ننم للصباح

وستى تريد من نشوى أن تقر بالحق .. وهى تبكى وتقسم أنها لا تعرف ولا تفعل حتى صدقتها وغضبت من قسوة وشدة جدتى وهى تردد أنها ترى العلامات .. وحتى بنظارتى الطبية لم أكن أرى أو أفهم شيئا .

ولم يتوقف هذا الذى كان يحدث بين ستى ونشوى وخاصة .. فى الليالى التى كانت تتأخر فى عودتها للبيت .. ومرة بعد تأديب بالضرب وجذب الشعر وكانت ستنا بارعة فيهما ـ ضحكت بنت عمتى وهى تمسح دموعها بطرف فستان من فساتينها القصيرة التى أصبحت تقصر أذيالها وتقص أكمامها فى الخفاء وتقول لجدتى إنها أفعال الصابون الذى بدأ يضربه الغش وسوء الصنعة.. وفي الليل ـ وفى فراشنا الذى نتجاور فيه همست أسألها :

ـ أين تغيبين .. ؟

ـ إياك أن تقولى لستنا .

ـ لا أريد أن أعرف فلن أستطيع الكذب عليها .

ـ لو تستطيعين قولى لها .. قريبا أخرج ولا أعود عندما يأتى التعيين اذهب لاستديو التصوير الصغير فى الجميل .. أرسلوا شريط صورى .. وموافى سيوصى على . زمان عندما جاء مرة ليأخذ شيئا من دولاب أمه قال لى إننى نغشه وغندوره وأن وزنى أساويه بالألماظ والذهب ولما قلت له إننى أخاف من ستى ضحك عليّ وقال إن العمل فى الاستديو محترم ومن تحب بلدها تضحى وتذهب للتصوير .. ومن تضحى تقبض ثمن إخلاصها .. وأن ستك وستى كبرت وعفى عليها الزمن وغادرها .. لا تكونى هبلة مثلهم .

لمْ تعد سنة واحدة فى العمر هى التى تفرق وبينى وبينها ..

أشياء كثـيرة بدأت تفرق وتتسع منذ بدأت نشوى تكبـر وتستدير ولا تكف عن الفـرجـة علـى صـورتهـا فى مـرايا دولاب جـدتى البيـضاوية التى تمتـد ضلفه بطول الحائط ـ بينمـا بقيت أنا على حالى وجـهلى وخوفى وقلة حـيلتى ، وكمـا تصفنى سـتى دائما مقروضة بلا حتى بذرة رمان .. وبدأت ستى حتى فى قلب النهار تصمت صمتـها الثقيل الذى كانت تلزمه عندمـا يكتمل سواد الليل وينطفىء القمر وتعـتم نجومه وتأتيها سيـرة موافى .. وكانت لها حالات ذوبان وتلاش وكأن العتمة محلول يـذيبها ويخفيها داخله وازدادت نوبات ذهولها وبحثها الغريب فى خشب أرضية دولابها وثنايا جدرانه كـأن له فتحات وبوابات لا أعـرفها وعندما سـألتها عما تـبحث عنه زجرتنى وقالت إنهـا تطمئن على سلامة أخـشابه فقد قارب على السبعين ومازال خـشبة البندقى بقوائمه النحاسية البارزة وملائكتـه وزهوره المجسمة ومراياه التـشيكى تملأه من الداخل والخـارج كأنه نزل من السـفن التى جـاءت به من دميـاط وفضت أغطيته بالأمس فقط .

وفى نوبة من نوبات بحثى داخـل دهاليز دولابها اكتـشفت أن له بقـايا مكملة محـفورة فى الحـائط وأدراجا سـرية ـ وفى درج غائر منها فى باطن الأرضـية وجدت لفافة معـقودة بشريط أزرق أنيق تضـم خطابات من جـدى إليهـا وأعـدتها إلى مكانهـا وتمنيت لحظة أستطيع الـبوح لها بسرها فـلما طال صمتـها وحديثـها إلى صديقه ليلهـا والتى كنت أظن فى نوبات حديثها الـنادر إليها على زمن طفـولتى أنهـا تجلس لمن تراها وأنا لا أراها .. ولمـا كبـرت قليلا كدت أصـدق أنها تخرف وأنه من علامات ذهول عـقلها ولما ازدادت نوبات حديثها لها وأصغيت طـويلا إليها عرفت أنها واعية لما تقول وأنهـا تعانى عقلا أصح وأوعى مما تسـتطيع أن تحتمله

أوجاعها ولكن خـشيت عليها ثقل حزنها ونوبات صـمتها الطويلة وضيق صـدرها حتى الاختناق برائحـة عفن وكدر البحـر وموت البحيرة ونداءها المتكـرر علينا لنلحق ونخزن النور قبل أن تكتمل العتمة .. وتقافز السر على لساني لأسعدها وأخفف عنها وكشفت لها مكمن خطاباتهـا التى طال بحثها عنهـا .. ولم أكن أعرف أنني أرفع الغطاء عن صندوق مليء بأســرار وأكاذيب يبدو أنهـا تعبت من طول ما حـملتها أو أنها جنـت من الغضب لأن سرا غاليـا لها فضح ولا أعـرف هل كانت تريد أن تخلص ممـا حملته عـمرها أو كانت تريده أن يبـقى لها وحدها .. وعرفت أن سـتى لم تكن مثل البحر وحده وإنها لها مع البراكـين قرابه فمثل ما قرأت فى كتاب الجغرافيا انشق غضبها واخـرج نارا فى وجهى ـ ولما استحلفتها بجدى عبدالله ألا تغضـب منى قالت إنه ليس جدى وأبى ليس ابنها وجدتى قريبة بعيدة لهم . وكانت فى بطنها أرنبه لا تلاحق ولدها. وفى آخر سلسال عـيالها سقط أبى عليلا . وقالوا مـيتا ـ ورق له قلب الست عيوش وأخذته وطيبته بـالبحر المالح ـ أيام كان البحر عفـيا وقـبل أن يمرض بالعطن والزفـر ـ ولم يكن وجعى الـجديد لقربى أو بعدى فكل يوم كنت ازداد شبهـا بها وعرفت لماذا كانت لأسباب لم أكن أعرفها تشير بطرف عصاها ناحية صدرى وتقول البعد والقرب يأتى من حجرة الكرار ـ وأحلى ما سمعته فى ساعة من ساعات صـفائها التى أصبحت كـخروج إبرة من جبل القش ـ وهى تطيل النظر إلى قـالت لى ـ كأنــها مرآة سـحرية أطـل فيـها: فاسترد عمرى المغدور به ـ أما وجعى الذى لم استطع أغرقه بماء البحر كله فـهو أنى حتى عرفت كنت قد بدأت اعـتاد أن يسقط كل يوم مما أعرفه ومما عشت عليه ورقة .

كـانت رائحـة العطن تزداد فـتزيد ضـيـقهـا وربو صـدرها ـ

وحكايات استـديوهات مـوافى تمـلأ المدينة وهى تزداد انكسـارا وصمتا ـ وأظن أنـه بدأت مقاطعتها للنوم وجلوسـها الليل للنافذة ترقب نهارا تقول إنه لـن يطلع ـ واستشهد أبى فى غـدر ٦٧ كما سمعتها فى الليل تنادى عليه وتأكـدت مما سمعته منها رغم أننى حاولت كـثيـرا أن افسره بغـضبـها .. ولكن من الذى صنع بقـية الحكايات التى صدقتها .. وماذا كان حقيـقيا وماذا كان وهما فيما يحكيه من حولى .. وماذا خبأوه وسيأتى أوان لاكتشافه .. أصبح اعتـياد تكذيب ما عـشت عليه ـ لم يعد مـدهشا لو اكتـشفت أننى لست ابنة أبى فالأحـداث أثبتت أن الأكاذيب بدأت تمـلأ أيامى مثل الكوابيس التى ملأت ليالى منذ ما حدث فى قلب عتمة الليل .

صـور لى خيـالى من كثـرة قـراءاتى فى صفـحات الحـوادث وبحثـى عن أخبار مـوافى لأطمئـن فزعا اشـتد عندها وأسـئلة لا تنطقها أن ما يحدث هو عملية سطو مسلح على دولاب جدتى وأن هناك من تأكد أن فى ظهر دولابها كنزا مدفونا .. ونحن نفزع على اقتحـام سطحنا ونبش حجراته ونتبـين أن هذا البريق فى الظلام لأسلحة مرفوعة تتقدم أقداما ثقيلة وما داخل الدولاب أصبح جبلا خارجه .. واحتـجنا وقتا لنفهم معانى الكلمـات الثقيلة التى تخرج من أفواههم ـ قالوا أن اسم مـوافى ورد بين موردى شبكة البنات التى كشـفتها جـريمة قتل حـدثت فى البنايات التى أستبـدلت بها منطقة العشش ، ونطقوا أسماء غريبة لهذه البيوت أفلتت من أذنى ولم أسـتطع فى ذلك الوقت أن أجد الرابطة بين الأمـان والحمـاية والوطن والبنات والنكسة .

وإلى جانب حائط بعيد دفعوا جـدتى ليسكتوا ضربات عصاها التى لم تطل إلا الهـواء ـ أسـرعتُ إليـها فـتسـاندت إلى .. كـانت ترتجف كأن زلزالا يهزها .. لا أعرف من أين جاءت بصوتها الذى

سمعت له صدى قادما من عند البحر .. قالت :

ـ الزفر فاح من زمن .. لماذا تحركتم الآن فقط ..

كادوا يأخذونها معهم لما حاولت أن تمزق ملابس واحد منهم وتبحث عن موافى داخله .. وتوسل عم إبراهيم ليمنعهم عنها بحجة كبرها ونوبات غياب عقلها .. وأظن أنه من يومها بدأ خلطها لليل بالنهار وغيابها الطويل والنور طالع وفزعها فى قلب الليل بحثا عن حبة نور وكثر حديثها لأختها الطيبة أو لنفسها وهمهماتها وهى تدقق نظرها الذى ضعف فى شىء لا أراه أمامها.. كأنها تقرأ من فوق السبورة التى كانت تقول إنها تجد الحروف مكتوبة فوقها داخل رأسها ـ وصدقنا لما كبرنا أنها كانت حيلة من حيلها لتقول الحق خوفا من أن تقرأه مكتوبا فوقها ـ ولم يعد ما كان هو شاغلها ولكن القادم بعد وهاجسها الدائم الولد لو اشتد عوده وعاد . وتقسم أننا سنتركه يشتد ويعود وسنقلع كل أخضر فى أرضنا ونروى الشوك ونحصده .. وتلعن أبو جهلها وبطنها التى قبلت البذرة وسقتها .. وفرع ملوخية كان يفرغها .. وكنت أتحاشاها وأبكى وحدى وأنا أظن أن هذيانها وتخريفها اكتمل ـ فلم تكن ملامح القادم تشكلت لأعرف أنها كانت بالفعل تقرأ على سبورة حدسها ما لا بد كشفه لها النور الذى كانت تختزن .

ولا أعرف متى بدأت تستجيب لعشق نشوى للرقص فهذه مرحلة أخرى من عمرنا .. وأول ما لاحظت أنها بأصابعها المعروقة الطويلة التى بدت كهيكل العظم المرسوم فى كتاب الصحة توقع إيقاعات لها حنين وشجن على ظهر الرق وتستحلفها نشوى أن تغنى فتقاوم .. ثم تستسلم وتردد تحانين ينتفض لها قلبى ويقع من صدرى وأتماسك لما يسترد وجهها ملامح صبية

صغيرة وتختفى تجاعيده ويعلو صوتها على إيقاع السمسمية بأغنية للبورية التى خرجت فى الفجر للصياد وعشقته وتزوجته وأصبحت بنتا اسمها عيوش تظهر مع السراب للمسافرين وتسألهم عن طريقها بعد أن سرقوا منها البحر والصياد .. وبينما أبكى أنا على البورية ويزداد نشيجى مع ارتفاع تحانين ستى وإيقاعاتها الحزينة تتمايل نشوى وتدور كالنحلة وتحلق كالفراشة ويتحول ثوبها الواسع القصير بادواره متعددة الألوان إلى أجنحة تطير فى الهواء وتدق بكعب حذائها المرتفع وتئن أخشاب البيت .. وأشد أطراف ثوبى الطويل وأحكمه حولى .. وساعتها لم أكن أفهم لماذا كانت جدتى تربت كتفى ولا تكف عن مص شفتيها وهز رأسها والتصعب والتعجب .. وتسحب شهيقا عميقا من الهواء القادم من ناحية البحر وتطرده بسرعة وتقول :

ـ الوقت لم يعد طويلا عليهم ..

● وأسألها .. وكعادتها لا تسمع وتجيب :

ـ زاد العطن والزفر .. والأمواج حبلى بالغدر .

● وكثر حديثها للنوارس ولرأس نخلتها الذى كان قد قطع من زمن .. وكثر أيضا غمز وتصريح الجارة التى بدأت على غير عادتها تحمل الأطباق فى المواسم وغير المواسم إلينا وعينها لا تفارق الدولاب وقطع طاقم الجلوس المذهب وخزانة الحائط المليئة بالفضة النادرة .. وتدور بينهم .. تتحسسهم وتقلبهم بلا خجل وتقول :

ـ أصبحت « أنتيك » .. تحتاج متحفا ـ تساوى الملايين وعندى الشارى .

● وبدأنا نعتاد غياب قطع من أغلى ما كانت تمتلك جدتى ولا نعرف متى وكيف ـ ورغم بصر ستى الذى أصبحت تستكمله

بتحـسس طريقهـا فقـد كانت لا تكف عن ترديد إحـساسـها بأن المكان يخس وأشياؤه الغالية تغيب ولم يعد لها إلا رغبة واحدة أن تصـمت وإذا تذكرت حنينهـا للحكى فـوسط حكيهـا تذهب بعيـدا وتنسى أنها كانت تحكى ويعاودها حـنينها للضوء وتطلب فنجان قهوتها المحوج وأداعبها وأسألـها إن كان معه كوب الشمس فتهز رأسـهـا موافقـة فآتى بها ولا تمـد يدها إليهمـا .. وتطلب أن تبقى النافذة مـفتـوحة حتى فـى قلب النوات وسقوط الأمـطار مادامت هناك نقطة ضوء باقـية ولعنت أجدادى كلهم عندما تمـسكت مرة بإغلاقـها عندما اشـتدت الرياح وكادت تـقتلعهـا وقالت لى وهى تقسم باليمين :

ـ سيأتى زمان تشتاقون فيه حبة الضوء .

● وصمتها يطول ... وصدرها يضيق برائحة العطن التى طغت على رائحة البـحيرة والبـحر .. وترفض حـتى الأسماك المـشوية التى كنا نعيش عليها أيام الأسبوع السبعة وتهجر هوايتها القديمة فى أن تقوم بشوائه بنفسـهـا بعد أن تشقه وتملأه بخلطة الكرفس والبصل والثـوم والملح والكمون ونجلس أمـامه فى فرن حـجرة الكرار نعد أرز الصيادية .. سكن العنكبوت الفرن والصمت حجرة الكرار الفـارغة ـ وأصـبح الفـول النابت بالليـمـون ـ حبـات منه وجبـتها الوحيـدة وسط صيامـها الطويل بعد أن كـانت حتى فى نوبات مرضـها المـعدودة لا تقربـه من فمهـا .. تعودتهـا تعرف أسئلتى وتجيبها دون أن أنطقها وعلى كثرة ما سألتها لم تجب أو تلتف إلىّ وهى تدور تثبت أركـان السطح بأحجار ثقـيلة لا تقوى على حملهـا وأسارع لأساعدها .. وأحاول أن أفـهم ما الذى انفلت من جذوره وستأخذه الريح معها .

● نداؤها على نـشـوى أصـبح عـذبا ولـم أصـدق أذنى وهى

توصيها وتكرر وصيتها وتقول لها وهى تشير إليّ :

ـ زمانك قادم يا غندورة .. لا تنسى أنها كانت من أهلك .

● لا أعرف متـى انتهى الود بينى وبين جدتى وكيف أصبحت نشوى فتاتها المفضلة تغيب طويلا وتظهر وجدتى لا تسأل وتقول إنها واعية تعرف طريقها ولا خوف عليها ولابد أن تكمل جملتها بإشارة إليّ أعرف أنها تعنى « الدور والباقى على خائبة الرجاء » .. فقد بدأت أسمعها فى الأيام الأخيرة كثيرا ثم لم تعد فى حاجة لأن تنطقها أو ربما أحسست بقدر وجع روحى منها .. وعندما أخذت نشوى حقيبتها ولم تعد كانت جدتى كأنها تعرف .. سألت فقط عن الساعة وهزت رأسها ودارت تثبت أركان السطح بحجارة جديدة وراحت فى صمتها الطويل وكانت تعود منه فى نوبات فزع تسأل عنى وتطمئن لوجودى وأنا أجلس إلى جوارها أذاكر ولا أغادرها إلا لمعهدى العالى وأعود فأجدها يكاد يطير عقلها كأن شياطين ستخطفنى .. ثم تقرأ آيات من القرآن وتردد تعاويذ وتصلى على النبى وتطلب منه أن يشق بيننا وبينهم بالعسل واللبن الحليب .. وأرتجف وأدخل فى أثوابى الطويلة وكتبى الكثيرة وأغيب فى مذاكرتى ولا تغيب هى طويلا فى صمتها وتسترد فزعها وتدور حولى وتلعن أبى وتقول ابنة العليل عليلة .. حتى ماء البحر لم يعد يشفى ولا يحيى كما كان .. ولا عاد ماء بحر .. غرقت البحيرة والبحر بالزفر والعطن .. ستموتين بخيبتك ـ تغندرى وتعلمى من النغشة يا عيدان القش .. زمانها قادم وزمانك يغرق .. ملعونة وسلالتك وكل الطيبين التى أتيت منهم سيدقونك على عنقك حتى لا يجدون مكانا لأختامهم على ظهره .. ويضعونك فى قفص ويقولونها عبرة لمن يعتبر كانت كاملة الأوصاف فى زمن النقص فيه زينة والعقل خيبة وصاحبته حزينة .

● جدتي التي أحببتها وأنا أتربي في حضن محبتها ورحمتها وحلمت أن أكون مثلها .. وأزيد ما نقصته وأعرف ماذا يفعل النور إذا اكتمل شربه وريه وأنجح وأتفوق لأقترب منها وأفهم وأقرأ لها كتب جدي لأتعلم ولأفوز بفرحة خفية تتقافز في عينيها بدأت أفهم معناها لما بدأت أكبر وقلبي يدق في صدري لكل ولد يتعقب خطواتي وعلى قدر ما أغضب بحق وترتبك خطواتي أتمنى لو ظل ورائي .. من كان يستطيع أن يجعلني أصدق أن هذا اليوم سيأتي وسدود وجبال بيني وبين جدتي .. لم أعد أفهم ما تقول .. ولم تعد تطيق رؤية وجهي .. ولا تطل عليّ إلا وكأنها ترى رعبا يطير بقية عقلها وتسألني عن موافي فأقسم لها أنني لا أعرف إلا أنه قبض عليه ومات في السجن .. فتغضب أكثر وتعلن خيبتي وجهلي بالدنيا وتدور تثبت أركان السطح وتطمئن أن الأحجار في مكانها وتقول إن الحية تكبر .. وتكبر وضاق عليها جلدها ... وستكبره وتوسعه وتلبد في الأدمغة وتحفر جحرها وتضع بيضها وتنفث سمها .. وستختنق الشمس وراء القمر وتطول العتمة النهار والليل وكل من لم يختزن النور سيندم على يوم ولدته أمه .

● كنت أرتجف وأنا أراها في النهار تسأل لماذا لم يطلع النور وكان اللون الرمادي يلون الأيام التي قصر نهارها وتكاد تظلم من منتصفها جمد الهواء وسخن واشتدت رائحة الزفر والعطن وفشل في علاجه جميع المعطرات وشركات النظافة العالمية التي استوردوها وأغلق الصيادون بيوتهم ورهنوا مراكبهم واستبدل بعضهم ركوب البحر بركوب الصحراء .. وقالوا إن بعضهم ضاع في السوق الحرة لما حاول أصحاب التماسيح والخنزيرة أن يبيعوا لهم بحرا جديدا .. وبدا كأن المس الذي يصيب كل ماأراه

يحدث حولى ويصيب ستى رغم أنها قابعة وراء نافذتها لا تغادرها وعلى قدر ما أصبح لها من أطوار غريبة .. وما أصبح من بُعد بيننا وما استجد من شدة تعاملنى بها فأبدا لم تذبحنى بالقسوة التى شهدتها فى تلك المغربية حتى خيل إليّ أنها لو فى ذراعيها قوة لمزقتنى وتاوتنى فى جوف الفرن وكما كانت فى يوم تتمنى لو فعلت ببذرة السوء والشر وكما كنت أسمعها عندما كانت تصحو الليالى المقمرة ولم يكن قد اتضح سر أوجاع روحها وتطول مناجاتها لوحدتها وتلعن عجزها ولا أفهم ما الذى كانت تستطيع أن تفهمه لو لم يقطعوا النور عنها قبل أن تصح ويشتد عودها وتعرف كيف تمنع الثعبان أن يضع البيضة فى لحمها .

كنت قد تعذبت طويلا وأنا لا أعرف كيف تتساوى مشاعرها ناحية كل ما كرهت وتعذبت بمشاعرها ناحيتى .. لو أعرف أن تلك كانت ليلة الكشف .. وإن ما حدث سيحدث وإنه فراق أخير بينى وبينها ما تمنيت أن أعرف .. أظلمت الدنيا على عادتها فى تلك الأيام مبكرا وكانت السماء تنزف مطرا كما لم أشهد طوال عمرى حتى تخيلت وحوشا جسدها من الأمطار تهاجمنا .. وتنهشنا .. كيف كل الأشياء تتبدل إلى القبح والقسوة .. كنت أحب المطر وكنا نخرج نلعب تحته وأطلق شعرى ليرويه ويطيله .. ولما كبرت قليلا أحببته رسالة رحمة والسماء ترضع الأرض .. وتلك الليلة كانت الأمطار من قلبى المثقل بالوحشة والغربة ولم أعد أعرف من الذى يبكى أكثر أنا أم السماء ورغم كل ما كان يحدث خارجى وحولى فداخلى انقشعت الغيوم وتجلت الحقيقة .. فبكائى لم يكن مما فعلته بى ستى عيوش ولكن من كشف صورتى التى كنت أخفيها .. وكيف رأتها بعيونها التى لم تعد ترى .. كيف عرفت أن

الزمان يبتعد عنى وأطرافى وقدراتى بلا أصابع تطول ما تريده أو تتمناه .. جزام أصابنى .. أوراقى فى المدينة يعتذرون عن قبولها لعدم الأهلية ولنقص التأهيل .. كنت أخفى صورتى الداخلية أو الحقيقة وراء مظهر قوة أتماسك وراءه وادعى القدرة كيف أمسكت جدتى بالحقيقة .. ومن داخل مخابئهم أخرجتهم كلهم .. قلة حيلتى وضعفى وهوانى على الأيام التى ستأتى .

فى انتظار نهار أعرف فيه إلى أين أذهب تذكرت لعبة طفولتى وأغلقت أنفاسى فقد أستريح راحة أخيرة .. وسمعت دقات عصاها فى باحة السطح تتساند إليها وتكاد تقع بها وصوت همهماتها يختلط بصوت الأمطار والرياح .. كنت أعرف أنها فى السنوات الأخيرة تبدلت طباعها وسكت حديثها للنوارس ولنخلتها المقطوعة وللبحر الذى كان ولابن طيب لم تنجبه ولم يبق إلا أسئلة متقطعة عما يأتى من المدينة من أخبار عن « موافى » وكنت أسمع أنه كبر واشتد عوده وكنت فيما أراه من أخبار منشورة لناس مشهورة لا أعرف أن كان هو ابن جدتى .. بالتحديد لا أستطيع أن أجزم . ولكنها ملامح موافى المحفورة فى ذاكرة الطفولة كبر واشتد عوده ويضع للزمن ألوانه ويغير أسماءه .. كبر الاستديو وانتشرت فروعه فى أنحاء الدنيا وسجل باسمه اختراعا تاريخيا يستخدم الظلام فى التصوير بدلا من الضوء .

كان سكوتها وصمتها الطويل لا يشقه من زمن إلا غضبها عليَّ وفزعها لرؤيتى وإن كان لم يحدث إن كانت قسوتها وذبحها لى وكلماتها الحادة مثل تلك الليلة .. قاومت أن أغادر فراشى لأبعدها عن النافذة التى دخلت وفتحتها على أقصى اتساع لها وجلست تحتها .. أحسست بالشلل يزحف على عظامى التى جمدها البرد ..

وجـدتها تتـحـرك ناحيـتي .. جلست على طـرف فراشي وقـبلت رأسي.. ارتجفت لملمس فمها المثلج ومـلابسـها المغسولة بالمطر أحكمت بيديها الغطاء حولي ولأول مـرة سمعت لها صوت بكاء .. تمنيت لو افتح ذراعي وآخذها بينهـما فطوال عمرى كنت أتمنى أن احتـضن وأربت جسـدها المضيء النحيل وكنـت أحبهـا وأخشى قوتها وأعرف أن تحتها ضعفا ورحمة لم تجد بوابات لها فكل من أحبت كسر قـلبها وكل ما تمنت أخذ منها ولم يبق لهـا إلا بصيرة وشدة فى الحق تعذبت بهما رغم أنها لم تجاوز فيهم الحقيقة مرة واحدة حـتى وهى تذبحنى .. وقبل أن أعـرف ماذا أفعل كـانت قد عادت لنافذتها المفتـوحة وجلست عندها بينما ازدادت جيوش إبر البرد عنفا ووحـوش الرياح تضرب الحجرة من جمـيع الجهات و كأنها كماشة طبـيب الأسنان وهو يشد ضرسا من ضروسى التى أكل التـسويس جـذورها .. ثم وجدتهـا تندفع إلى طرفى كنبـتهـا وكأنها كـره تتدحرج فوقهـا .. واكتشفت أننى مـثلها أتدحرج فى فـراشى وخلع الرعب قلبى قـبل أن أتبـين أن البـيت يرتـج تحت ضربات زلزال .. وجـدتنى فى الأرض .. وتنبهت عليهـا تفزع إلى وتتشـبث بى كأنه قـد نما لهـا ذراعان من حديد .. وأخـذتنى فى صدرها كان ضوءا يشع منه .. كأن الشمس التى تغيب من شهور وراء الشبورة عند الميناء قد سكنت فى صدرها .. والبيت يترنـح كأنه عش طائر على طرف جـريدة نخل وسط عاصفـة مجنونة .. وسكنت واطمأنت فى حضنها الدافيء كما لم أسكن وأطمئن طوال عمـرى الذى ذهب والذى جاء بعد وظلت تمسـح رأسى وصدرى وبينما لزم فمها الصمت سمعت من صدرها أصداء ترتيل قرآن :

بعد أن استوت الأرض واستـقرت البناية وأنا أحاول أن أرقدها فى فراشها .. قالت لى :

- إجمعى الفرش لم يعد لى نومة فوقه .. جرس المعدية يدق لأذهب البر الثانى - إشربى النور واشتدى على الزمن لتعجز الحية أن تجد مكانا للبيض .. قتل العبد الصالح الولد حتى لا يكبر معه شره ويأكل أباه وأمه .. لكن لا كان عندى بصيرته ولا ذراعه .. لا تقفى وحدك .. واشربى لترى وتطولى واسقى ... لا تنتظرى الفجر .. الشمس محبوسة وراء القمر .. والكسوف سيطول .

كنت أحلم . أو كنت بكامل الوعى .. أو كنت بينهما .. أو كنت أهرب مما كنت أعرف .. أنه عندما لا يطلع نهار فلن تستيقظ ستى عيوش .

- ولم تستيقظ ..

- .. فى المدافن النائمة فى بحر الخضرة لا يفصلها عن بحر الماء إلا طريق ضيق وأنا ألمس رأس النخلة الصغيرة الواقفة عند قبرها والتى طلبت منى ألا أكف عن ريها لأنها لن تكف عن إطعامها من داخل قبرها قلت لها :

- الرسائل بدأت تصل أوضح وأعمق .. سأعيد قراءة كل ما كان .. والقادم بفهم وافتح العين والعقل والقلب .

- لا أعرف متى سمعت نشوى برحيل ستنا مع أنى نفذت وصيتها بعدم نشر نعى أو إبلاغ غير أقاربنا الباقين فى مدينتنا الصغيرة .. كنت أعرف وأسمع أنه قد ذاع صيت وعلا نجم نشوى.. ووصلنى فيما يتهامسون به أن التدريب فى بيوت التصوير صقلها وأمن مستقبلها .. وأنها كما حدثتنى فى يوم من الأيام تجنى ثمن الاخلاص وأنها تعمل الآن مع موافى فى واحدة من مؤسساته الكبيرة .. وأظن أننى تأكدت أنه لابد أن يكون هو - فملامحه المحفورة فى ذاكرة الطفولة هى - ولكنه لم يعد يضع للزمن ألوانه ويغير أسماءه فقد كبر واستقر ويصنع كل شىء

على مقاسه ـ فـالاستديو كبر معه وانتشــرت فروعه بعد أن طور اختراعه النادر الذى استخدم الظلام فى التصوير بدلا من الضوء.

– فى مـوسم زيارة لجدتى التـقيت بنشـوى تلمع فى سـيارة فاخـرة وأدهشتنى التـجديدات التى حدثت للمـقبـرة المتواضـعة والرخام والسيراميك والبـوابة الحديدية السوداء المذهبة والمكللة بثبت عائلى لأسـماء لم أسمع عنها فى عائلتنا يتقـدمهم اسم ابنـها وأزالت نشوى دهشـتى بأنه يقوم بواجب أمه عليـه وكما أكرمـها فى حياتها يكرمها فى موتها .

ـ لابد أن الضحكات كانت لـجدتى تلك التى سمعتـها وأنا أعود إلى المدينة على أقـدامى عبر الطريق الســاحلى الطويل ـ لا أعرف هل كانت تضـحك على ما سـمعتـه معى تقوله نشـوى عن إكرام ابنها لحياتـها وموتها .. أو تضحك ضحكة من ضحكـاتها القديمة التى كنت أحن لها عندما تغيب .. وعندمـا تطلقها أعرف أن مواسم جنى الشمس تقترب .. يتدفق الدم فى عـروقى وتدفق حماس كثر وقوعه وضياعـه منى .. أسرعت الخطا وركبت الريح لألحق وأعد واجبـات تلميذاتـى ليوم دراسى قادم وأصل مـا بينى وبينهن من سـقى بالحب والعلم .. وأصنع مـا همـست به « ســتى عيـوش » والدنيـا ترتـج فى كـل ما أحـاوله لأصـمـد وأواصل واشـتـد .. ولا أكف عن شرب النور من منابعـه القليلة الباقية لأشـعة مع كل الذين يشربون .


يونيو
حالة

ـ كعادتها عندما يضيق الكون توسعه .. وتصغى لأصـواته وتستـرجع أصـداء ازمان وأحـداث وناس وتستـعيد لحظات انهـزم فيها الـشر فتأمن روحـها وتستكن وتسكن للحظة انهكها صـعود الجبل تلتفت تتـوسل وسـيلة مـواصـلات .. الجـبـل وسكانه والقادمون إليه لم يستيقظوا بعد الطريق خال إلا من وقع خطاها .

للمـرة الثالثة أو الرابـعة أخرجت الخـطوط التى رسموهـا لها حتى لا يضيع منهـا الطريق أحست أنه ضاع .. ولكن الفكرة التى استولت عليها لم تترك مسـاحة لخوف أو تراجع .. وفرط إيمانها بما جاءت له آمنت أنه سيقودها للمكان .. طمأنتها الخاطرة فحثت الخطى ..

تقافزت الحمـامتان النائمتان على صدرها تحـتضنان بيضا لم يفقس منذ ألف وأربعمـائة عام ووراءهما شبكة خـيوط العنكبوت تفصل بين الثـائرين المختـبئين داخل الكـهف وجند الشر الواقف بالباب ..

تقـدمت الأقدام الـسوداء من فـتـحة الكهـف وسدتهـا وراحت أطراف السيوف تمزق كل شئ حتى الهواء .

تراجع الـسـيف المـرتجف .. خاف لـو قطع خيـوط العنكبـوت

ينقطع خيط عمره كما حذرت العرافات ..

قال الثائر الأكبر لصديقه .

ـ لا تحزن إن الله معنا .

انسكب على الكون ستار أمن وانحسر الشر وتنفست الحمامتان الهواء الذى قطعه الجدار الأسود .. وتنفست هى الأمن الذى قطعته مئات الجدران السوداء ..

ـ مدت يدها تطمئن أن الحمامتين مازالتا فى مكانهما المدقوق على العملة المعدنية التى وجدتها تائهة فى بحثها الدائم وراء الأشياء القديمة تآكلت أطراف العملة وأطراف الكلمات التى تشير إلى أن العملة دقت فى ذكرى الهجرة وبقيت الحمامتان وسطها تشعان المعنى فى صدرها تشبثت بهما ووضعتهما فى إطار وتعلقت بهما وهما تتدليان من سلسلة هى الأخرى من مخلفات بحثها فى الأشياء القديمة .. أرجعت لخيالاتها ولأوجاع روحها إحساسها من زمن قريب أن الحمامتين تهمان بالطيران .. والبيض انطمس .

انتفضت وتشبثت بقلادتها وأسرعت أكثر فى صعود الجبل رغم أنفاسها المقطوعة .. وتنبهت مرة أخرى أنها تتعلق بالحمامتين كلما أشتد الكرب وزاد البلاء ..

انتهى العمار وبدا الأمر كما وصفوا لها خلاء واسعا كأنه طرف الدنيا البعيد والمبنى أيضا كما وصفوه لها ضخم عتيق وبوابته شامخة قديمة كأنها بوابة الزمن أو التاريخ ..

تقدمت واستجمعت آخر ما بقى لها من جهد بعد مشوار الصعود الطويل وشبت على أطراف أصابعها لتطول الكف

النحاسي الضخم .. ودقت الباب ..

من الخوخة التي تتوسط الباب أطل وجه عجوز له عمر البيت والجبل يحلق في وجهها .. لابد أنه قرأ شقاء العمر المديد عليها ــ فما ان فتح فمه ليحتج على موعد قدومها المبكر كأنها لم تنم طوال الليل لتبدأ مع أول شق للفجر .. وكانت قد هيأت نفسها بتقبل المتوقع وغير المتوقع من الغضب رغم أنها لم تفصح عن نوعية الطلب الذي قالت إنها جاءت من أجله تطلب مقابلة المدير .

انتظرت أن يكمل العجوز غضبه ..

أغلق الخوخة وفتح الباب .. وانزاح لها لتعبر .

تلفتت تبحث عن شئ تستعيد به اطمئنانها من البلاد البعيدة التي يفر إليها عندما تجد نفسها غريبة .

وجدتهما ..

غائرتان .. بعيدتان .. تغوصان في عمق الحفرتين اللتين صنعتهما جدائل السنين حولهما .. الحدقتان ربما كانتا سوداوين في يوم من الأيام .. ولكن الزمن أذهب اللون وأبقى الفعل والمعنى.. لهما طيبة نائمة في العمق البعيد .

يبدو أنه لم يأت المكان أحد غيره وغيرها .. أشار إلى ركن بعيد لتجلس وتنتظر حتى لا تغوص في الماء الذي ملأ الأرض .. وامتلأ وجهه برغاوى الصابون .. أدارت وجهها بعيدا احتراما لعريه .. كان يشمر عن كله ويقلب المكان ويغرقه في بحر ماء وينظف الجدران الحجرية البيضاء بلمسات سريعة .. من فرط الرفق وعلاقة العشق بين الأصابع والجدران سمعتها تتأوه .. وبالراحة والنظافة تضوى وتتمدد.. بطرف إصبعها وبحركة خفية

مست الجدار تتأكد أنه من صخر وليس من لحم ودم .

اقترب منها العجوز يزيحها إلى مكان جديد ليواصل التنظيف.. امتـثلت وانتقلت وعـادت عيونهـا تمسح المكان وترقب صـعوده وهبوطه الأعمدة لينظف المشربيات والفتحات القريبة من الأسقف والمغلقة بزجاج معـشق بكل الألوان .. وينفض التراب عن الأقمر الزجاجيـة الزرقاء التى تتوسط الأسقف الصخـرية فتضئ المكان بنور شمس مغموس فى لون البحر .

تنفست بعمـق وتمنت لو ابتلت بمائه .. وعرفت بمقـياس جديد معنى ما كتـبه الحكيم فى تذكرة طبية قديمة أن مـاء المحيا الذى يطيل العمـر ويجدد الخـلايا ليس ماء أسطوريا .. ولكنه مـوجود يوجـد إذا تدفق الأمن والـراحـة وانفـتـحت الأفـهـام والأرواح .. ساعـتها يحدث العطش الحـقيقى فـتنفتح المسام وتبـتل العروق فترتوى الروح وتحيا وتتجدد الحياة .

تمنت لو أن الباب لم ينفتح مرة ثانية لتخرج منه وانفصل هذا البيت العـجيب عن المكان الذى جاءت منه .. وتصبح فـإذا بها لم تكن وكل من اتعبتهم وتعبت منهم يرتاحون وترتاح .

انتهى العجوز من تنظيف الأسقف وعاد للأرض وقال لها إنها تستطيع أن تنتظر فى أى مكان فقد انتـهى التنظيف ولم يعد باقيا إلا القليل على موعـد وصول الموظفـين والمدير لتـقدم له الطلب الذى جاءت من أجله كما قالت فى أول دخولها المكان .

وهو يبتعد عنها سمعته يقول لها :

- كان مشوارك طويلا .. آجلسى وأخلعى نعليك .

فزعـت ..! كيف عـرف ..؟ وهل مشت أمـامه بطريقـة تكشف

تورم قدميها وتسلخ ساقيها .

اقترب منها يزيح مقاعد بعيدا عن الماء وقال .

ـ من الأفضل انك بكرت .. الشمس ستكون حريقا .

أشارت إلى بقع حمراء تملأ ذراعيها وقالت :

ـ الحريق بدأ قبل أن تطلع الشمس .

أشار للجدران وقال لها وهو يبتعد :

ـ إنها حية تتنفس لأنها مقطوعة من صخر الجبل .. تحجب الشرد خارجها وتبرد الهواء داخلها .

تنبهت انها منذ دخلت وهى تبحث عن سر ترطيب المكان والهواء البارد الذى يملؤه رغم عدم وجود مراوح ولا أجهزة تكييف .. ورغم الشرد الذى يخنق الهواء خارج البيت والدخان الذى يغلف الأرض والمخلوقات ينثر عليها رذاذ رماد كأنها مخلفات احتراق حدث أو على وشك أن يحدث .

ارتاحت للمكان .. وأطمأنت للشيخ .. وأطلت عليه من بعيد فوجدته قد عاود انشغاله بالتنظيف والترتيب ..

خلعت حذاءها .. وارلحت ساقيها وأبعدتهما تسكت لهيب تسلخاتهما ..

فزعت وأغلقتهما .. كارثة لو عرف عنها الأكثر ..!

عادت تنشغل بالمكان .. وجدت له عمر الجبل وقدم الزمن .. ولأثاثه الجوزى الداكن رائحة عطر السنين والتاريخ والبخور وحوافه وأركانه تملؤها الأشعار والآيات القرآنية مكتوبة بالأصداف ..

لم تتوقع أن يكون للمكان كل هذا السحر وهى تقرأ فى

الجريدة أن بعثة الجيولوجيا والطبيعة والجغرافيا اختارت بيتا فى الطرف البـعيـد للمـقطم عند نقطة فى الجـبل تسـمح لهم بوضـع أجهزتهم لرصد وتحليل حزام التـلوث الذى يلف المدينة ولمراقبة اتسـاع الثقب الذى اصاب رأس الكون .

مدت يدها تحت شـعرها تبحث عـن المكان الذى سيظهر فـيه الثقب وقالت للعجوز وهو يقـترب منها ليناولها كوب ماء دون أن تقول له إن لسانها تشقق وتشعلق فى سقف حلقها .

ـ ستحتار السلالات القادمة فى تفـسير أسباب الثقب الموجود فى جماجمنا .

وضع الكوب جـانبهـا وعـاد يتحـاور مع الأشـياء حـواره مع كائنات حية اكتسبت بالعشرة حياة . وأكملت هى بهمس أعلى :

ـ هل يصدقون أننا عشنا عجائب وأوجاعا ففتحت أمخاخنا فى قشرتها ثقوبا تنفث منها الدخان والنار بدلا من أن تنفجر بهم .

قال لها :

ـ تقولين شيئا ..؟

باغتتـها مفاجأة سـماع صوتها فقد خـفضته حتى لا يسـمعه غيـرها فمنذ تعـودت الصمت بسـبب ما يأتى به الكلام اصـبحت لا تقول أغلب كلامها إلا لنفسـها .

تذكرت الماء واحتياجها إليه .. وهى تشربه لاحظت أن الصبار يفتح مـسامـه ويطلب رشـفـة . أخذت الكوب وقـامت إلى أحواض الزرع التى تمـلأ النوافـذ الوطئـة تحيطهـا الكرانيش الخـشـبيـة مـغزولة بالأرابيـسك العربـى .. وزعت عليه نقـاط الماء وعـادت تتقافز حافية وقالت للعجوز بفرحة طفل ارتوى :

ـ سمعت صوته وهو يمص الماء .. كان ميتا من العطش .

ضحك لها العجوز ولحقها بإناء ماء ممتلئ وأشار لباقى الزرع لتواصل الرى وأشار إلى رأسه وقال :

ـ دخلت المائة الثانية على الحسابات التى تحفظها رأسى .. فأنا لا أعرف ما يسمونه تاريخ ميلاد .. أحسبها بحساب ما حدث فيها.. تاريخ الجهادية .. حرب عرابى .. حرب الانجليز .. يوم قامت القيامة وخرجت البر كله خلف الباشا سعد .. عرفت أنها بدأت تشيخ لما بدأت تقع منها حمولة الوجوه والحكايات وتنسى ولا تتذكر إلا الناس والأيام التى أحبتهم . موعد سقى الزرع فات من أيام .. الحمد لله أنك سمعته .. يجلسون بجواره كل يوم وآذانهم وعيونهم مفتوحة .. ولا سمع ولا رؤية .

أنتهت من السقى .. وتنبه أخيرا كلب حراسة ضخم كان مازال نائما أن قدما غريبة اقتحمت المكان .. دقها الخوف مكانها وهى ترى الشر المستطير فى عينيه وهو يندفع ناحيتها .

نادى عليه العجوز يؤنبه ويلعنه أنه أصبح مثلهم بليدا سد الطين منافذه .

والتفت إليها وحذرها أن يعرف الكلب أنها خائفة .. هدأ نباحه وبدت عليه علامات استكانة .. وظننتها تحفزا على طريقة أولاد البشر .

طمأنها أنه حيوان له أصل ولا يهاجم إلا عدوا ومازال يفهم ولا يخطئ قراءة نوع الغريب القادم .

لم تنتبه لغرابة مشهدها وهى تربع أقدامها تحتها فوق المكتب الذى قفزت إليه إلا وعشرات الوجوه تحدق بها وتحيطها بعشرات التساؤلات .

نزلت رغم خوفها .. وتولى العجوز عنها تقديمها إليهم وأشار إليها وتذكر أنه لم يسألها عن اسمها وهم بالسؤال عنه ثم أزاحها وقال :

ـ بنت الناس الطيبين .

سألته فى نفسها كيف عرف إذا كانت هى نفسها تشك إذا كان ما يورث كل هذه الغربة والشقاء اسمه طيبة أو له مسميات أخرى .

فهمت أن العجوز افهمهم أن الغريبة جاءت فى طلب شخصى من السيد المدير .

بأطراف أصابعها وبطرفة من عينها سألته الباحثة صاحبة المكتب الأقرب عن طبيعة هذا الطلب الشخصى .

وهو يضع الصينية النحاسية المستديرة تمتلئ بأكواب الشاى تطل منها أعواد النعناع الأخضر أكد لها أنه لا يعرف .

فتحوا لفافة تمتلئ بأرغفة فول وطعمية وتخاطفوا وتضاحكوا وقدمت لها صاحبة المكتب الأقرب رغيفا وكوب شاى .. عرفت وهى تتناولها إنهما عربون محاولة مخبوءة لاشباع فضولها ومعرفة سر الطلب الذى جاءت من أجله ..

حدثتها عن كدحها لتصعد الجبل ولهفتها لتلحق اليوم من أوله والبحث عن المكان والخوف من التوهان حتى وصلت عند الباب ..

نسيت ما بدأت من عنده وما كانت تريد أن تصل إليه وهى تعيش فى تواصلهم ود وصدق وبساطة .. تفتحت مسامها وجاعت وعطشت وأحبت اقتسام اللقمة معهم .. وضحكت فى

نفسها لحوارهم تعطيه طبيعة المهنة قاموسه الخاص .

وهم ينفضون أيديهم من مخلفات إفطارهم ويستعدون للصعود للدور الأعلى حيث فهمت أن أجهزة الرصد والبحث والقياس هناك ..

قالت باحثة لها وجه طيب ويبرق فى عينيها قلق

كثرت التشوهات والتشققات ولم تعد الأجهزة كافية لرصد المناطق المهددة بالكسور فى القشرة الأرضية .

من بعيد جاوبها شاب وهو يضع ذراعيه فى اكمام بالطو أبيض .

ـ ليست أجهزة رصد الزلازل فقط .. لحقت بها أجهزة قياس التلوث .. السواد يحزم المدينة ويتخطى قدرة الأجهزة .

من فوق الجبل وهى قادمة شاهدت المدينة وقد فقدت ملامحها داخل طبقات الدخان الأسود .. ظننته رماد فجر احترق من درجات الحرارة العالية .. طلع النهار وظلت المدينة من بعيد بلا ملامح .

اعتصر قلبها غم وزحف حزن قديم .

نبهتها حركة صعود الباحثين إلى الدور العلوى همت بالتوجه والصعود .. من وراء ظهرها أمتد الكف العجوز وأسكنها مكانها وقال لها :

ـ منطقة الأجهزة محرمة على غيرهم .

حاولت أن تقول له أنها ليست غريبة عنهم .

ضاع صوتها فى محاولتها لتفادى نحلة دخلت نافذة وأخذت القاعة الواسعة فى دورات متوالية واتجهت ناحية نافذة مواجهة .

افسح العجوز طريقها وقال :

ـ لا تخافيها فهى لا تؤذى إلا من يعترض طريقها أو يسده بعطر صناعى .. رائحة الطبيعة تقودها إلى خليتها .

أخذت جانبا وسألته إن كان مؤكدا حضور المدير اليوم .

قال لها :

ـ لا شئ مؤكد ..

خجلت من نفسها .. بعد كل مشوار أوجاعها ومازالت تسأل عن المؤكد واليقين مع أنه لا شيء واحد فى حياتها تأكد .

ـ آه ..

قالتها طويلة وعميقة ومحروقة .

سألها :

ـ كنت تقولين شيئا .

هزت رأسها بالنفى وأطرقت واستسلمت للانتظار .

مدت يدا مرتعشة .. وتراجعت .. ثم تقدمت وتكرر ترددها .. الكلب المستسلم للنعاس قرب اقدامها ارتفع برأسه لتطوله يدها .. وجرت يدها تربت بخوف على رأسه .. واصلت الربت عليه .. وواصل استسلامه وعرفت أنه أطمأن وعرف انها مثله تحتاج إلى صحبة .. وعيونه نصف النائمة تواصل الحوار معها .

سمعت أصوات حوار تأتى أصداؤها من خارج البيت .. قفزت من مكانها .. لابد أن المدير وصل والعجوز فى الخارج يتحدث إليه ..

اندفعت للخارج تلحق بالمدير قبل أن يصعد إلى مكتبه وينشغل بأعماله عنها .

وجـدت العـجوز انتـهى من سـقى اصص الزرع والأشـجـار الصغيرة التى تملأ مدخل البيت والمكان خال إلا منه وحواره كان مع زرعه والمكان أشـبه بمشتل صـغير زرعه وأشـجاره مازالت اطفالا .. يسـقيهم ويربت رءوسـهم وينزع حشائش دخيلة ونثر حبوبا لعـصافير تأكل وتتـقافز ولا تفزع لخطوات أقـدامه العارية تغـوص فى الطين وهو يواصل السـقى ويحـذرهم من الاقتـراب فالشـجر مازال صغيرا ولا شئ فيه يؤكل .

سكب مزيدا من الحـبوب والتزمت العصـافير بالأمر واسـتدار للشـجر وسـأل إن كان أحد منهم مازال عطشان .

على باب المشتل وقـفت تتفرج عليه قـبل أن تسأله عن المدير قال لها : إطمئنى لابد أن يأتى مهما تأخر .

تمنت لو سألها عن الطلب الذى جاءت له

لتطمئن على امكانية تحقيقه .

تمنت لو كانت صبـارة فى فخارة حمراء وطين مـسقى تسمع من يسأل عنها وتستجـيب للحب والاهتمام فتكبر وتطول وتطرح وتملأ الأرض ظلا ويتـدفق عصيـرها نهرا ويأتى كل من له رأس بلا شعر يسقيها من ماء نهرها فينبت شعره .

سألت العـجوز أن كان وهو يملأ المـشتل بالصبـار يعرف أنه أعظم دواء للصلع .

ضحك وهو يـخلع غطاء رأسـه ويريهـا شعره الكثـيف الأبيض سألته إن كان يؤمن أن البشر أنواع مثل الزرع .. وإن هناك بشرا صبارا يـنبت فى الصحراء لا ماء ولا ظل ويخـتزن أمطار السنين البعيـدة ويتغذى على الجفـاف ويستمر رغم ظروفـه الصحراوية

ويطرح وردا وعطرا وزيتا وشعرا وظلا .

أسرع العجوز إلى راكية نار صغيرة فوقها براد شاى قديم تحت الشجرة الكبيرة الوحيدة .. وجلس فوق فراش من الحشائش الخضراء وقدم لها مقعدا واطئا رسومه الدقيقة تقول أنه كان فى زمانه تحفة ..

غاصت فى المقعد الخشبى واستندت لجزء الشجرة الضخم الذى يبدو وكأنه جذعان اشتبكا واتفقا واصبحا واحدا .. لفتتها غزارة خضرة الشجرة رغم حرارة الصيف وجبلية الأرض .

وهو يناولها كوب الشاى أشار إلى الشجرة وقال :

ـ طوال العام لا تعرف خريفا ولا شتاء .. جدى العرابى الكبير كانت بيده مفاتيح البيت أيام جاء واستولى عليه ساكنه الأول الأرناؤوطى .. قتله جدى لما طغى واستكبر وظن أنه يمكن أن يطرده لأنه سكن البيت ..

[illegible] جدى أن يسبق ويطرده لأن صاحب البيت والأرض بالتعب والعرق أحق من سارق البيت مجهول النسب والأصل .

ـ ارتجفت لسيرة القتل ولم تفهم علاقته بالشجرة التى لا تسقط أوراقها ولا تتوقف خضرتها طوال العام .

وهو يحكم لفافة تبغ من علبة من الصفيح الصدئ قال :

ـ لما شربت الشجرة من دم القتيل الظالم ومن غضب القاتل المظلوم اصبحت تصاب بحالة غضب وتحمر أوراقها كلما احست بظلم أو خطر قادم قبل حرب عرابى شاهدتها بعينى كنا عيالا نلعب تحتها وفجأة انقلبت الدنيا حمراء رفعنا رءوسنا صرخنا كلنا.. انقلب ورق الشجرة أحمر .. وأحمرت الشمس وطار ريح

أخذ الورق كله وفرش الأرض بالدم .. وبعدها سمعنا من الكبار أنهم خانوه وهزموه ونفوه .. وتكرر الشئ نفسه قبل نفى سعد وقبل زلزال ٤٨ وقبل زلزال ٦٧ وقبل موت عبدالناصر .. الدم مازال يجرى فى عروق الشجرة ويندفع فى أوراقها لما تكون الدنيا حبلى بخطر .

ارتجف جسدها وابتعد عن التلامس مع الشجرة وأحست بالملمس اللازج لبقع الدم وتساءلت إن كانت حمرة الشجرة تكون فى لون الدم .

قال لها :

- ليس شرطا أن يكون فى لونه .. ولكن لونها الأصلى يتغير.. وخضرتها تدخلها حمرة .. الشئ لا يتغير عن أصله إلا ليقول أشياء .

هزت رأسها توافقه وانسابت منها الكلمات .

- كانت البنت مازالت نقطة تسبح وتسبح فى المدى باحثة عمن يسقطها فى أرض فتروى ثمره فتنبت شجرة من يومها يوم ربما من مائة الف عام وهى تكبر وتتحسس .

عرفت أن أوان النزول اقترب .. ارهفت السمع لحس العالم الذى يخرجونها إليه سمعتهم يقتسمون الدنيا فكل شئ عندهم أرقام تلصصت وتسمعت وتوسلت لحظة رحمة الصمت الكامل إلا عن القتال والتقسيم والغضب والنار المشتعلة .. خافت والتصقت بجدار اللحم وتعلقت بحبال القلب وقررت ألا تخرج . حدث الزلزال الأول .

ارتجفت وتخبطت فى جدران صندوقها ثم تدفق حولها بحر

دم وعرفت أن سكينا طارت فى الهواء ونصلها الحاد مزق جدار الصندوق فتحوه ليخرجوا الجنين الميت وجدوه مولودا حيا من يومها وهى ميت حى .

قالوا : إن كل من يعرف الحس وله اتصال وعين تبصر واذن تسمع .. وله خجل ووجل وحسية .. من يحمل هذه الصفات فى زمن خائب يبقى ميتا حيا .

قرأتها البنت فى الكتب القديمة التى قالوا لها فيما بعد أن بها الكثير من كشف الأسرار .

قال لها العجوز :

ـ اتركى ما بعد إلى ما حدث قبل وأكملى حكاية البنت .

قالت :

ـ استأجرا الطريق بين بيتهما وقسم الشرطة لا يكفان عن العراك لاقتسام كل شئ وقررا قسمتها اثنين .. النصف له والنصف لها وكأنها طفل حدوتة سيدنا سليمان .

تحسست جسدها وأكملت :

ـ حتى الآن مازالت البنت تقوم فى الليل تبحث عن أجزائها فقد يكونون مزقوها ليأخذ كل واحد نصيبه فيها .. وحتى الآن مازالت تبحث عمن يستطيع جمع الأطراف ووصلها .. ما علينا .. عرى التمزيق أغطية سلوك الأعصاب والإحساس والحواس وأيقظهم الوجع ودقهم ورقهم الحزن فازدادت حالة الاتصال بالألم والغربة .. وفى عيونها واصابعها وعقلها وقلبها تفتحت آذان وعيون وسكن إحساس بالدنيا .. وكان المشوار طويلا لدرك أن كل يوم ستكبره وكل فهم تحصله سيزداد به المرض .

ريت العجوز وجه الأرض وتحسس بلل الطين وتأملها بعمق وسألها :

ـ ومن قال أنه مرض .. ؟

قالت :

ـ كان فى أوله مرض ثم انقلب إلى كارثة ..؟

ـ كيف ؟

ـ فى البداية ظنوا أن أمرها لا يزيد عن حالة حساسية زائدة ـ ولم تفهم أمها سر العلاقة بين الطفح الجلدى الذى يحول جسد البنت إلى كرة متوهجة حمراء وبين مواسم اللقاح .. دهنتها جدة كبيرة بزيت قنديل أم هاشم بعد أن قرأت عليه سبع تعاويذ وعجنته بهباب سبع عرائس حرقت عيونها وثقبت أجسادها ثم خرقت أوراقها ثم غسلوها بماء البحر المالح فى فجر يوم فردى من شهر قمرى لسنة غير كبيسة .. قالوا لأمها جربى تجربة أخيرة .. فإما يغسلها المالح وتشفى وإما تأخذها موجة وترتاح .

وفى الفجر عارية إلا من ثوب الهباب الأسود رموها للبحر .. حضنت الموجة ورضعت صدرها وخرجت عليها .. لم تشف .. ولم تمت ..

واستقر الأمر انها حالة حساسية تحدث عندما يأتى الربيع ويمتلىء الهواء بحبوب الحياة .. ولما حدثت فى الخريف قالوا إنها حساسية للتراب . ولما حدثت مع الطعام والشراب قالوا أنها حساسية للمعلبات والمحفوظات وكل ما هو غير طبيعى فى الشكل واللون والمذاق وانها يجب أن تعيش على منتج الطبيعة .. ولما عاشت على القليل الباقى من الطبيعى وتكررت الحالة قالوا

أن حالة الحساسية انتقلت للسماد وما تخله من كيماويات .. واضاف كل طبيب جديدا لقائمة الممنوعات .. ولم تعد البنت خريجة معهد فنى قدر ما أصبحت خريجة أقسام الحساسية بالمستشفيات وحالة مطلوبة ولأعلى سعر لطلبة كليات الطب .. ورفضت أن يكون مرضها مدفوع الأجر وقدمته مجانا للدرس والبحث لمن لا يقدر على الدفع فالوجع والوحدة شدا روابطها إلى أصحابهما .. ووسع حالة الحساسية ووصلها بالبشر..

والعجوز يعيد إشعال النار وملء دورثان للشاى أمعن فيها النظر .. ولم تنتظر سؤاله لترد عليه :

ـ صحيح يا عمى اصبحت البنت خيبتها ثقيلة .. ومثل البحث عن العنقاء والخل الوفى اصبح البحث عن أرض ومواسم بلا تلوث وربيع بلا تراب وشتاء يغسله المطر وماء بلا شوائب ولا طحالب وهواء بلا جبس وصباح بلا شبورة سوداء وزرع لم يأكل من سماد مسمم وفراخ يلدها البيض ولا تخرج من الأنابيب.

ـ لاحظ العجوز جفاف حلقها وبحثها عن ماء تبل به ريقها .. تذكرت أنها منذ جلست فى مشتل البيت ونفسها تراودها على شربة من طرف خرطوم ماثة مثل ما كانت تفعل وهى عيلة تعشق التمرغ فى رائحة النجيل الأخضر وشرب الماء مثله من حنفية وخرطوم الزرع .. ولا تحس بالشبع إلا بعد أن تطمئن أنها غرقت مثله بالماء .

وهى عائدة من عند طرف الخرطوم تدعى أنه أغرقها رغما عنها وأنها بعد قليل ستصبح مثل الشجرة وينبت فى جسمها كله فروع وأوراق خضراء ..

لم يضحك العجوز وأغلق عينيه يصد عنهما ريح هم ثقيل ويحجب عنها رؤية ما امتلأتا به .

قالت له :

ـ انتظر .. فالسبب الحقيقى للحزن لم أحك لك عنه حتى الآن.. فحتى ما وقفنا عنده كان بالامكان تدبير اللقمة والتحايل عليها والتحايل على الجلد وما يحدث له .. واحتماله مرة وتمزيقه مرات بالحك وإسكاته بابتلاع أقراص .. ولكن شيئا آخر بدأ يحدث .. وحالة الاتصال لم تعد فقط بين الجلد والمصران والمعدة والأمعاء والماء والهواء والتراب .. انتقل الاتصال إلى الداخل .. إلى النفس والروح .. حالة الحساسية أو الإحساس انتقلت لهما الله وحده أعلم هل الألم يجلى الروح ويكشف عنها غطاءها فترى وتسمع وتحس وتتوجع .. المهم أن البنت كلما عرفت أكثر ازداد الوجع وكلما فهمت أحست واقتربت وانكشف لها الغطاء عن الناس والأشياء ..

ستقول لى كيف .. ؟ ولماذا .. ؟ و .. ؟

وسأقول لك لم يكن عندها إجابات .. ولا هى كانت تفهم معنى أن حالة الحساسية والحكة انتقلت لروحها .. وكما قال لها الأطباء راقبى جسمك لتعرفى ماذا يأتى بالحكة لنعرف كيف نعالجها أو على الأقل نخففها .

راقبت روحها واكتشفت أنها تحمر وتضيق وتنتفخ ويصيبها كل أعراض الحالة التى قرأت أن الأرض تعانيها عندما يكون الزلزال قادما أو البركان كامنا .. سخونة وغضب وهدير وغليان وتشقق وحمم تفور وتغلى على سطح البركان .. وأنه يحدث لها

كلما حدث خلل أو نقص أو كذب أو تلون أو انقطاع عن الطيبة والرحمة والفهم .

ـ وكانت تستطيع أن تطول جلدها ساعة الحكة وتستطيع أن تمزقه وتسكته ولكن ماذا تفعل بحكة الروح وكيف تمزقها لتسكتها .

ولما فشلت كل حيل ووسائل التداوى :

ولما تأكدت البنت انها اصبحت مقياسا حيا ومرصدا متحركا..

ولما كان كل ما يحدث حولها يصيبها بحساسية فى عقلها وروحها وجلدها ولما كانت حالة الاتصال بالكون حولها لا تتوقف .. جاءت تطلب عملا .

ـ قبل أن يفيق العجوز ويجمع خيوط كلماتها كانت سيارة المدير تقف أمام الباب وكانت البنت تقف أمام مكتبه وتدفع له بالملف الذى لم تتركه للحظة يفلت من تحت ذراعها وبحركة سريعة ودون أن يقرأ المدير كلمة واحدة قلب أوراق الملف وأعاد إغلاقه وأعاده إليها وقال :

ـ نحن لم نطلب موظفين فهذه بعثة علمية من طلاب الدراسات العليا و ..

وهى تعيد الملف إليه وتضغط يديه به ليظل ممسكا قالت له .

ـ أعرف ولكنى لا أطلب الانضمام للموظفين والأوراق ستوضح كل شئ .

جاء العجوز بالقهوة تشبثت بعينيه فطمأنها ومد يديه وفتح الملف أمام المدير الذى أعاد التقليب وتوقف اكثر من مرة وأمعن الفحص ومحاولة القراءة وهز رأسه وأعاد المحاولة ورفع رأسه

وأمعن النظر فيها وقال :

- يبدو أنك أخطأت وجئت بملف شهاداتك الطبية بدلا من ملف الدراسة والخبرة اعتذرت له وأكدت أنها لم تخطئ وأن هذه الشهادات الطبية هى مسوغات التعيين التى جاءت تطلب بها العمل وأن كانت قد حرصت على التأكيد أنها لا تطلبه فى كادر الموظفين ولكن بين أجهزة وآلات التنبؤ والرصد .

عدل المدير نظارته الطبية وأغلق من وراء زجاجها عينيه يخفى احساسه بأنه يجلس إلى حالة متقدمة فى الهلوسة أو الجنون أو التخلف العقلى .

- اقسمت له أن ما يفكر فيه غير صحيح وأنها بكامل قواها العقلية وأن كان ما يدور داخل رأسه عنها لا يفاجئها فقد توقعته وتوقعت الأكثر منه .. فإذا كان الذين عاشت معهم عمرها لا يعرفون ولا يفهمون ولا يصدقون فعذره معه لأنه يراها لأول مرة وستعيد عليه الحكاية من أولها .

- تشابكت كل الأشياء .

صياح المدير ليأخذها العجوز بعيدا عنه .. صياحها لتؤكد انها تريد أن تضع أجهزة اتصالها وسط الآلات بعد أن فشلت فى استخدامها لإقامة حالة اتصال صحيحة مع البشر وارتفع الاثنان.. صياحها لتشرح .. وصياح المدير لتخرج ..

والعجوز يجمع أوراقها التى طيرها المدير فى الهواء ويضعها لها فى الملف ويصحبها إلى الخارج .. أقسم لها أنه يصدق البنت..

سألته إن كان لا يطيب خاطرها .. عاد يقسم لها انه فهم .. صرخت واقسمت انها هى التى لا تفهم لماذا تبقى حالة متصلة

فى زمن تقطعت أوصاله وسد الطين منافذه وأبوابه ..

بعد أن اقسم إلا يفتح لها البوابة إلا بعد أن تهدأ جلست تحت الشجرتين المتصلتين فى جذع واحد .. واستندت إليه واحست بالراحة وهى تحس أن الجذع اصبح من ثلاثة .. سألته أن كانت رأسها لم تطرح ورق شجر أحمر .

قال لها :

ـ حتى الآن لم يحدث .. ولكن ليس بعيدا أن يحدث رفعت رأسها للشجرة وأشارت إلى ورقة بعيدة فوق فرع تائه وسط الفروع والأوراق المتشابكة قالت :

ـ شعيرات حمراء بدأت تتجمع تحت السطح الأخضر .. الزلزال قادم لو ظل الحال على حاله .

اتجه العجوز للشجرة وهز رأسه وأسف على الزمن الذى لم يبق من البصر إلا خيالات .

فى طريق العودة ووسائل المواصلات قاطعت الوقوف فى محطات الجبل وسيارات الركوب الضخمة تجرى فارغة والبشر يملأون اسياخ الشواء .

سمعت طقطقات لحتراق جلدها واوقف الجفاف عصا غليظة فى حلقها .. تقافزت الحمامتان النائمتان على صدرها وفردتا اجنحتهما فامتلأ صدرها بالهواء .. تمنت أن تمزق خيوط العنكبوت وتطلق كل المخبوء فى الصدور .. تشبثت بقلادتها واستعادت اللحظة المدقوقة عليها .. تزلزلت تحت وطأة حرارة الإيمان والقوة والقدرة وسرى فى كيانها كل ما جاء به استعادت لحظة الأمن وهزيمة الشر .. ضحكت للسحابة التى استعملتها

مظلة فوق رأسها .. وبرد الجبل وبدأ يلقى بظله على الأرض .

أراحت خطواتها .. والتقطت انفاسها .. قفزت البنت أمامها .. أزاحتها بعيدا عنها وقالت لها :

ـ حتى الآلات رفضت انضمامك إليها .. لم يبق إلا البحث عن وسيلة لإغراقك فى البحر والبحث عن إمكانية الحياة بشروط البلادة والاستسلام لعتمة الروح والعقل والقلب .

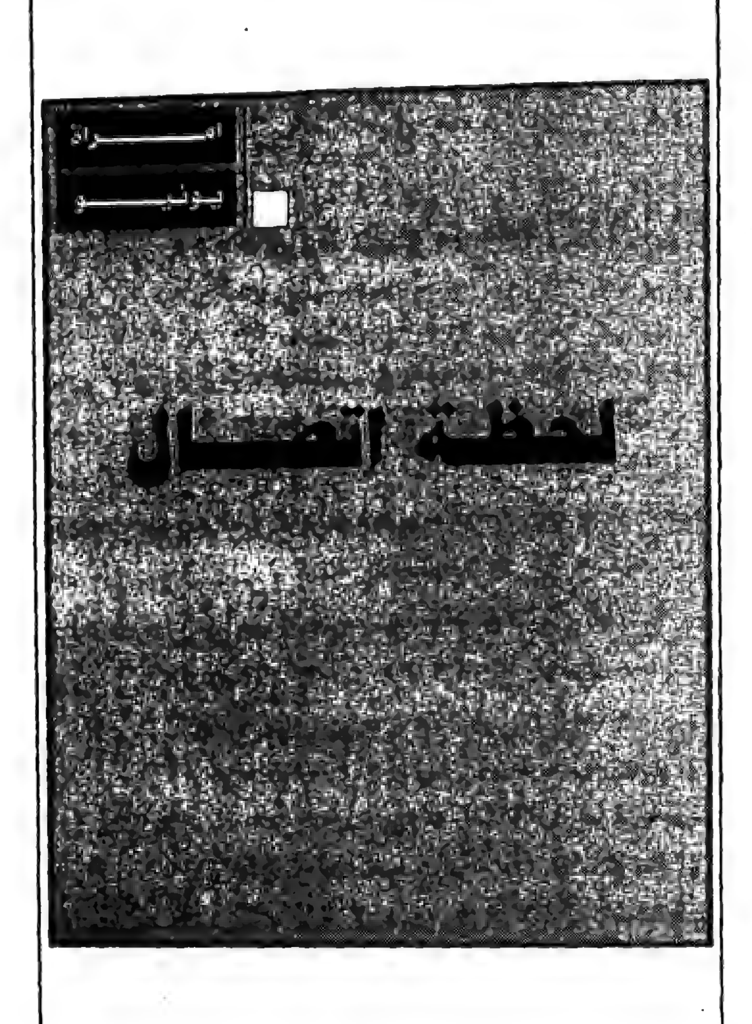
استعادت لحظات انقطاع الاتصال بالوجود وبالبشر عبر الرحمة والفهم والإحساس .. تذكرت كيف تختنق روحها كأنها الجمل الذى عليه أن يعبر ثقب الإبرة ليتنفس .

تشبثت بها لتبقى .. ومهما كان الثمن المدفوع لوجودها .

ـ غذت المشى .. وتحولت خطواتها لقفزات .. حالة اتصال حدثت لها مع الكون وسمعت اصداء بكاء وضحكات وجهد وعرق وانفاس شقاء وكدح وكفاح .. تذكرت انها قطرة فى بحر يموج وانها فى حاجة إلى اتصال أعمق وأوثق .

قالت للبنت وهى تلتصق بها أكثر :

ـ سنجرب أماكن أخرى ولكن لن نكف أبدا عن محاولة الاتصال .


امرأة
يونيو
لحظة اتصال

تلفتت تحاول أن تأتى بمشهد للصورة حولها .. ماذا لو أنهم كلهم دقوا فى لحظة واحدة .. استجابوا لها .. وقفزت تسد اذنيها بأقصى طاقتها للضغط عليهما لتسكتهما .. كادت تدخل عظم رأسها اليمين فى عظم رأسها اليسار والرنين المتوحش لا يكف ..

ـ تلفتت تتأكد أن لا أحد انتبه لخاطرتها المجنونة .. أبعدت بيديها عن رأسها . العالم صامت كما هو والكل يتحرك وحده كأن لا أحد يدرى أن هناك آخر فى المكان .. واصلت البحث عن أكثرهم دقة وأعلاهم تقنية .. ومرة أخرى سألت البائع الوحيد الذى يقف بالطابق الضخم الذى يضم أحدث أجهزة الهاتف بأكبر أسواق المدينة .

ـ ممكن أن تساعدنى فى اختيار الأفضل ..؟

ـ ومرة أخرى تشاغل بشئ لا يفعله . وكررت الغضب دون أن تنطق فقد اعتادت ألا يسمع أحد ـ حتى وهو يسمع ـ وحمدت الله أنها احتفظت برغبتها فى مد حبال الود إلى مرسى إنسانى حتى لو مع بائع طيب يأخذ ويعطى معها ولو فى زمن لا يمتد بينهما إلا فى لحظة ..

ـ كانت تريد أن تقول له :

ـ أريد هاتفا يحس وإذا وضعته على أذنى يلتقط الإشارات القادمة من العقل والقلب ويصلنى بإنسان يفهم ويحس ولو على الطرف الآخر للكون .. وكانت تريده أن يلتقط الرسالة ويقول :

ـ هذا الجهاز .. وهو يقول لك « إجعلى قلبك يرفع صوته قليلا» .

كانت الرفوف البعيدة والقريبة تمتلئ بكميات مدهشة .. والمعروض خارج العلب لا يقل عما بداخلها .. كأن الأرض انفجرت وقذفت من قلبها بملايين من أجهزة الهاتف بمختلف الأحجام وبكل الألوان ، ومع كل جهاز شرح مطول بلغة بلاده وبلغات الدنيا الحية وهى عليها أن تقلب وحدها بين هذا كله وتختار الأحدث والذى يتناسب اقتصاديا والمبلغ الذى تسمح به ميزانيتها .

ولأن الشكل يشكل جزءا أساسيا من علاقتها بالعالم فهى تريده قطعة فنية إذا وضعته على مكتبها فى الخان الصغير الذى تعيد تأسيسه للمرة الثالثة خلال خمس سنوات حالكة من عمرها ولأنها تعمل بالديكور والإضاءة الداخلية وتلتصق بالطرز العربية التى أحبتها ميراثا عن أبيها وعشقا من روحها للعالم الذى زرعه أبوها فيها وهى بعد حبة صغيرة ـ مثل حبات القمح والفول التى علمها أن تزرعها فى القطن وتتسلى بها عن غياب أمها وتملأ بها فتحات المشربيات الخشبية فى بيتهم القديم فى الحسين ، لتظل كما كان يقول لها فلاحة مثل أجدادها ومثلما علم اصابعها الصغيرة كيف تلمس النحاس وتطرقه وتشكله كما تريد وكما كان يقول لها وهو يضعها على ساقه ويداه لا تكفان عن التعليم

والتصحيح والتشكيل وبين يديها الصغيرتين يضع قطعة ويقول لها « إذا أحببتها من قلبك ستتحول من صلب إلى عجين وتصنعين منها ما تريدين مثل ما تصنعين العرائس من عجين كحك العيد » .. لو تجد هاتفا يحمل الطابع العربى حتى لا يخدش روح المكان .. لو عرفت اليابان أو هونج كونج أو أيا من النمور التى تزأر الآن فى جنوب شرق آسيا نهما لالتهام اقتصاديات العالم لأرسلوا مخترعهم الجديد غدا وعلى عنوانها بالتحديد فى ربع السلحدار بخان الخليلى .

عادت تجرى محاولة لاختيار أخرى علها تهتدى إلى جهازها الخاص والمتميز بين كل هذه الأجهزة ، وعادت خواطرها المجنونة تشكل علاقة ذات مذاق خاص بالعالم .. ماذا لو تكلموا كلهم مرة واحدة وانفتحت الخطوط على بعضها ..

« آلو .. صباحك جميل .. متى تغرب عن وجهى إلى الأبد .. أحبك .. اختصرى وهاتى من عند النقطة الأخيرة .. قلت لها شبيك لبيك .. ويعلم الله ماذا كنت أطلب منه ساعتها .. ولكن هذه المرأة كذا وكذا .. يا غبى وهذا ما يجعلها الأفضل والأنسب .. أقسم لك.. برجاء تحديد العام الذى يقع فيه القسم للبحث عن معناه فى القاموس .. هذا كثير يا حاج .. وماذا نقول للبركة .. وهل نرفض النعمة .. الأرض تتكلم عربى يا باشا والبورصة تتكلم أنجليزى وفرنسى .. حط السماعة يا إسماعيل .. الله يخرب بيتك .. يا إسماعيل أين أنت ..؟

دخل تشويش فى الخطوط ودوت صفارة عالية ثقبت أذنها واكتشفت انها وهى تتنصت على هواتف الدنيا وضعت على أذنها

سماعة هاتف تصورته من المعروضات ولم تنتبه انها للجهاز المتصل بالخط الرئيسى فى الدور الأول وأن إسماعيل المنادى عليه هو هذا الشاب التائه الواقف أمامها .. وصعد شاب من الدور الأول يزجره .. واشتبكا .. وابتعدت بسرعة وهى تعتذر عن خطئها غير المقصود .. وبالدموع ضحكت للمشهد كله ولتليفون العمدة القديم الذى يشغل ركنا هاما فى المعرض الكبير وإن كان يبدو كالغريب بين الأجهزة الحديثة رغم ما أضافوه إليه من تطوير وتزويق .. وكان ما زال يحمل اليد التقليدية التى كان يديرها الخفير لينادى على المركز .

وتذكرت ليالى الريف القديم لما كانت تسافر عند أمها وزوجها رجل الأمن الذى تزوجته بعد أبيها والصمت المطبق ليلا ونهارا على العالم هناك .. وليالى حنينها الطويل والمفزع للعودة لأبيها وعالمه المليء بالفن والجنون والصخب .. لطالما تأملت أمها وتساءلت « ماذا أحبت فى هذا الرجل الساكن الجامد قياسا إلى أبيها الذى كانت الدنيا تسكن بين جنبيه » هل ظلمت أمها لما ابتعدت عنها ولم تسامحها قط .. لم تنس قط الجملة الأخيرة التى قالتها لها قبل أن ترحل :

- قد يكون أبوك الأفضل .. ولكنى كنت صغيرة لم أفهم ولم أكن على قدر وسعه للدنيا .

جملتك الأخيرة .. لو لم تقوليها - رحلت يا أمى وظل الإرسال لا ينقطع بذبذبات الألم ومحاولات الفهم التى لم تحدث وأنت فى الدنيا وبينى وبينك بضع خطوات .. الآن وعدد الخطوات غير معدود والمكان غير موجود .. اتصالى بك لا يكف .. هل ظلمتك

عندما لم أتصل بك كما يجب .. لمـاذا لا يحدث الإرسال دائما فى أوانه الصحيح » .

أشتياقها إلى التـواصل الإنسانى بعد أن نضجت وسافرت فى العمر إلى أربعيناته وأدركت كيف تشتد الحاجة إلى الاتصال كلما كـبـرنا وحاصـرتنا الأيـام والآلام وانكسـا ر الأحلام والرغبـات والاقتراب من نهايات الأشيـاء ، عادت تقول وهى تحاول أن تغلق خط الألم :

« كان يمكن أن أمد لك يدا أفضل وتمدين لى يدا أكبر .. ولكنك لم تعرفى .. ولم أعرف » .

فى ركن بعيد يختبىء وراء صرح عـال من الأجهزة اختـبأت تمسح دموعا اكتشفت انهـا غسلت خديها والتقطت من بعيد نظرة لما حولها تطمئن أن حـركتها الخارجية وصخـبها الداخلى بعيدان عن العـيون تمـاما .. وارتدت نظارتهـا الأنيقـة وعدلت خـصلات شعرها الأسـود الطويل وشدت قامتهـا وثوبها الأنيق وتأكدت أن مشـهدها الخارجى يؤكد ـ ببـالغ الكذب ـ قوتها وسـيطرتها على زمام نفسـها .. وعادت للبائع تسـتنجد به وتستخـدم اسمه الذى عرفته وهم ينادون عليه فى خط الاتصال الداخلى :

ـ يا أستاذ إسـماعيل لقد انتـقيت أربعة أجهـزة .. أريد خبرتك معى لأختار أفضلها .

كأنه يـوغت بالنداء باسمـه عليه .. وكـأنها ضربـت الرمال أو استنطقت الغـيب .. وكأنه لم يسمع بقيـة السؤال وأجاب دون أن يفكر للحظة :

ـ والله إسماعيل ما هو عارف حتى اسمه .

جن جنونها وكادت تقفز كل عفاريت غضبها خارجها وتنشب أظافرها فى رقبته وتسأله : لماذا لا يعرف وأن من حقها كعميل أن تحصل على الإجابة الصحيحة .. نظرت فى وجهه وأحست بقلة حيلته .. وأفلتت منها قبضة يدها لتضرب طاولة أمامها وعادت تحاول الاعتماد على خبراتها الهندسية المتواضعة وتختار وفقا للإرشادات المكتوبة .

وهى تقلب فى الأوراق المرافقة للأجهزة وتحاول فك الخطوط وترجمة اللغات تأكدت أنها لم تكن مخطئة وأن هناك عيونا ترقب حيرتها وأن كانت تحرص على عدم اقتحامها ..

التقطت مشهدا جانبيا لوجه جاد له خطوط حادة ونحيلة تقاطعت معه أكثر من مرة أثناء بحثها وأكثر من مرة شدتها جديته وعلمية أسلوب تفاعله مع الأجهزة وقاومت نظرة جانبية تريد أن تخطفها مستسلمة لخطوط اتصالها التى تدخل بسرعة مدار جانبية نوع - من البشر أحست أنه يحمل الكثير من صفاته.. ودون أن تراه بالتحديد رأت بحسها الداخلى أنه - وعلى وجل - يحاول أن يخطف نظرة دمثة يطمئن عليها .. ولأنها اعتادت من نفسها كثرة الأوهام .. ولأنها اعتادت من الزمن انقطاع الاتصال .. ولأنها .. ولأنه - وكما يبدو من خطوطه وخطواته الجادة .. لا المرأة ولا الرجل اللذان يلتقيان فى لحظة مخطوفة من الزمن أو على أرصفة الأماكن العابرة ..

أصدرت أوامر مشددة لنفسها بتوقف الحوار الداخلى وأن تصادر رؤاها الخاصة وأن تنهى بسرعة هذه المهمة التى ثقلت وطالت وأن تأخذ واحدا من الأجهزة التى انتقتها وتفر سريعا من

هذه السوق الباهظة الفخامة والذى يبدو بلا بداية ولا نهاية ويضم تقنيات بملايين الجنيهات لأحدث أجهزة الاتصال يوضع وسطها عامل جاهل بكل شئ ويترك الناس تتخبط وتنتقى فى الأغلب مالا يناسبها ومدت يدها واختارت ما رأته الأفضل بين مجموعتها المنتقاة وذهبت للبائع ليكتب لها إيصال الدفع ..

وهى تنطلق كالصاروخ المندفع بقوة الغضب سمعته يقول لها بهدوء ودماثة الدنيا :

ـ هذا الجهاز ليس الأفضل ـ اسمحى لى من خلال خبرتى الهندسية أن أساعدك فى الاختيار .. وعفوا للاقتحام ، لقد ترددت طويلا وأرجو الا أكون قد تجاوزت حدودى ..

ومن يدها أخذ الجهاز الذى اختارته وقدم لها جهازا آخر من مجموعتها المختارة وقال :

ـ هنا القنوات أكثر مما يجعل التشويش أقل والصوت أوضح ومدى الانتشار أوسع .. وفارق السعر بين الجهازين لا يذكر .

وواصل الشرح عن امتياز هذا الجهاز بالتحديد .. وواصلت الاستماع إلى صوتها الداخلى :

ـ إذن مازال هناك بشر قادر على الاستماع إلى نداءات الاحتياج وقادر على أن يرى ويسمع نداء قادما من بعيد عن وجود حالة احتياج إنسانى ويتلقى الإشارات ويسارع إلى تلبية النداء .

إكتشفت أنها مازالت تتعثر فى دهشتها وأن رد الفعل لا يليق بنضجها وعمرها وفطام روحها على الوحدة والاعتماد على الذات فى كل شئ .. تنهدت بعمق ما أوجعها العطاء بلا مردود حتى من

أقرب البشر وأسلاك الاتصال المقطوعة رغم حبال الكلام الممدودة ومشانق المصالح والمسئوليات التى علقت فوقها عمرها وفاء لشرف الالتزام بكلمة .

عادت إليه فوجدته قد أخرج النشرة الشارحة وبدأ يفهمها أسباب تميز هذا الجهاز بالتحديد .. ومن حافظته أخرج بطاقة تحمل اسمه وتحدد تخصصه النادر فى هندسة الالكترونيات .. وضحك بدماثة وخرج وهو يقول لها :

- إطمئنى واشترى هذا الجهاز بضمان هذه الخبرة .

وترك البطاقة فى يدها وسارع بالانصراف كأنه تدارك أنه أطال اقتحامها .. وتوجهت للخزينة قابضة بثقة على الجهاز الأفضل .. ولكنها أحست أنها تريد أن تقبض أوثق وأقرب على اللحظة وتتشبث بتفاصيلها .. دفعت وتسلمت .. ومساحة من الأمن امتدت داخلها للمس الكهربى الذى أحدثه التماس مع نوع نادر من البشر مازالت لديه بقايا حواس الاتصال ويجد متعة التلبية دون أن ينتظر النداء .

للوهلة الأولى لم تصدق أن هناك من تلقى رسالة حيرتها واحتياجها للمعاونة رغم أنها لم تنطق بها ، بينما رسائل العمر المدفوعة من فواتير اللحم والدم والمشفوعة بالرجاءات والتوسلات لا تجد إجابة واحدة .. بالأمس فقط كانت قد قررت أن تترك آخر رسالة مسجلة متوقعة ألا تأتيها إجابة كالمعتاد بعد أن انتهى الاحتياج لها واستطاع العيال أن يقفوا على أقدامهم .. وبعد أن كادت ترتكب جريمة قتل ترد بها على قلة الأدب وإنعدام المردود الإنسانى . تصالحت مع نفسها أو تخاصمت فى اعتبار

أن الجريمة وقعت ولكن دون أن تتحول إلى قاتلة .. وقعت مع نفسها صكا بالقبول بشروط زمن الأنانية والعزلة .

« ولو جاءوا لن تستطيع أن ترد قلبها الخائب .. » .

وهى تضحك من قلبها المثخن بجراحة قالت لصديقتها آخر الليل قبل أن تنهى مكالمة كانت تطمئن بها أنه مازال لها صوت وهناك من يتلقاه على الطرف الآخر .

« ألم يعملوا الأعمال لتميل القلوب وترق .. تحتاج القلوب الطيبة إلى عمل يجفف منابع رحمتها ويملؤها بالجسارة والقسوة .. سأبحث عن دجال يضحك عليَّ مثل كل الذين ضحكوا .. » .

وهى تخلص نفسها من زحام سوق الهاتف وتتعجب للبشر الصامت الذى يبحث عن أحدث وأقوى أجهزة الاتصال تنبهت أنها تلهث من فرط ما كانت تسرع فى خطواتها..

جلست تلتقط أنفاسها داخل سيارتها .. حاولت أن تستجمع تفاصيل ملامحه .. تنبهت أنها لم تره إلا من مشهد جانبى لم يأت بتفاصيل وجهه بالكامل وأن كل الملامح التى أحبتها كانت لإنسان يملك حلاوة إدراك حاجة إنسان يقف إلى جانبه ويحس بيد تريد أن تتلامس مع يد أخرى فيمتد إليها ويتلامس حتى دون أن تمتد اليد .

ـ كانت عيونه .. لون بشرته .. أنفه .. لا تذكر بالتحديد إلا تقاطيع حادة وواضحة ؛ تعلمت من دراسة الفن انها لا تكون إلا للبشر شديدى الحساسية .. حاولت أن تثبت له صوره على شاشة ذاكرتها قبل أن تفلت منها تفاصيل اللحظة ..

وجدت صورة لوجه لابد أن يكون هو صاحب الملامح

الجانبيـة التى تتذكرها أعادت التـذكر .. تأكدت أنه هو .. باغتـتها المـفاجـأة ثم تذكرت أوهامـها وأحـلامـها التى من فـرط قوتهـا واشتياقها للاتصال الإنسانى تصبح أحيانا حقائق تتحرك أمامها.. نظرت من النافذة تطمئن من المرآة الجانبية لخلو الطريق لتتحرك وتمضى وجدت الوجـه كاملا فى المرآة الأخرى .. وخـرج رأسـها من السـيارة تتـأكد أن خداعها البـصرى وصل إلى حالة مرضية كاملة .

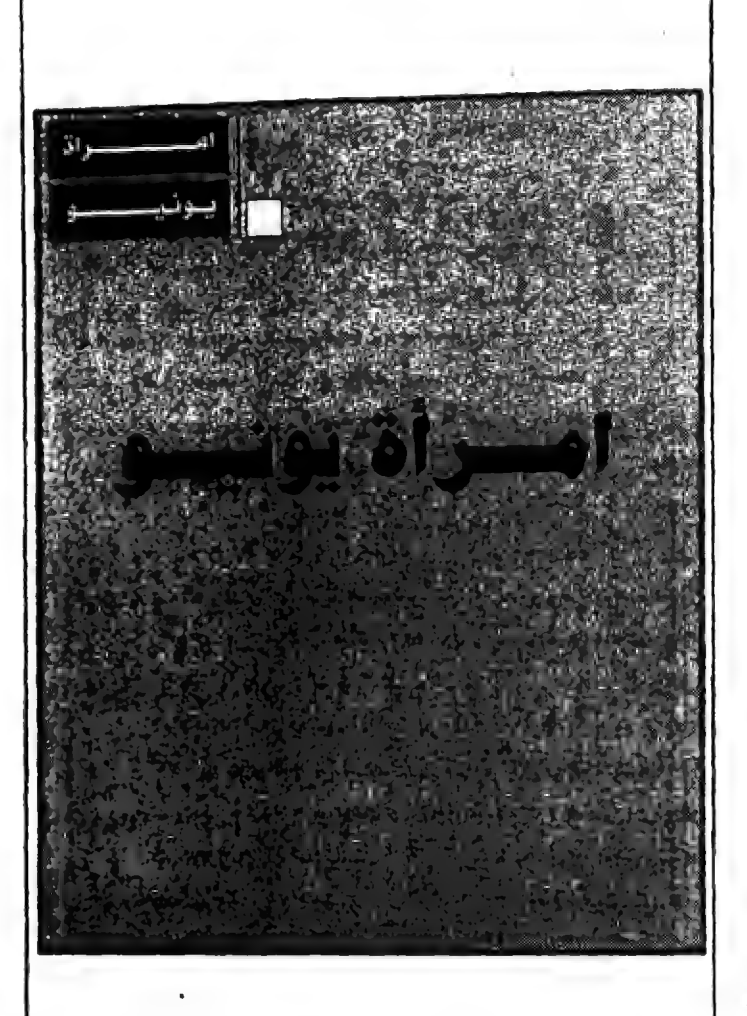
وجدته يـجلس فى السيـارة التى تقف خلفهـا يتأملهـا وينتظر بهدوء .. والمنادى يكرر صيحته التى سمـعتها قبل دخول السوق « لا تتأخرى فالسيارة خلفك لن تتحرك إن لم تفسحى لها مساحة للخروج .. » .

هل فهم من رأسها الذى تعلق خـارج السيارة إنها كانت تنادى عليه .

نزل من السيارة وجاء بابتسامة شديدة التهذيب والضائعة فى ارتباكها الهادئ وسألها إن كان بالسيارة ما يعطلها عن الحركة ..

هزت رأسها ومن حقيبتهـا أخرجت بطاقة صغيرة ملونة تحمل اسمها وعنوان الـخان تحت رسم لضوء يشع من داخل قنديل من مشغولاتها النحاسية وقالت :

– ستكون سـعادة كبـيرة لو تناولت مـعى ومع مجمـوعة من الفنانين الصـغار الذين أنقل إليـها شتـلات زرع الفن كوب قـرفة باللبن .


امرأة
يونيو
امرأة يونيو

تذكـر .. لا .. ولم تنس أبـدا .. حـتـى وانت فى سدرة الجاه وقلب الصورة تضىء وتطفىء .. وتكبر وتصـغر وتظهـر وتخفى وتمـيت وتحيى .. تذكـرت جـيدا مـاعشـت عليه .. لاتصـعـد وتظل تصـعـد إلا والدور يتكاثـر والعـقـول تهـزل .. كلمــا انكمـشت الرءوس وفرغت كبرت أنت وازداد حجمك .

خططـت وأحكمت أسلـحـتك بين يديـك .. تخلصت مـن الذين يظنون أنفسهم مـحترمين وموهوبين ويملكون أن يشـقوا طرقهم ويتقدموا وينظروا بازدراء لك ويفضحوا وجودك ويجمعوا الناس حولهم .. إنهم الصنف الملعون لاتستطيع أن تبقيه تحت سيطرتك ..إنهم الشـوك .. لاتزرعـه .. اقـتلعـه قـبل أن يكبـر وتقـتلعك .. العارون من القـيمة والشرف والتـابعون .. إقتن من أنت موهبته وعينه التى ينظر بها وليكن أنفك التى تتشمم ...

إحـرص على الصنف الذى لايحـيـا إلا فى مـسـتنقع .. دربه ليكون كـلبك المـخلـص .. إنه خـادمك الذى تصـبح ربه .. ذلك الصنف الذى لايشـبع .. وكلما مكنت له سـال لعابه وذهب عـقله وملكت فعله .

النساء .. تاريخـهن معك مـسجل .. أدركت مبكرا أن أصـحاب الغـرائز المنـحطة هم أكـثـر عـددا من أولئك الذيـن يتـمـسكون بالمبـادئ .. وأولئك الذين يدعون النبـالة .. عرفت أن أجسادهن

طريقك إلى ماخططت وتخطط .. للوطن وتأمينه .. البنات تعمل ... الشعارات الفجة التى تدربت وعشـت عليها ... أصبحت سلعتك ... كيف أدركت السر وصنعت الأقنعـة وللظاهر ألبسـتها ومـاتريد جـعلته خـافيـا وباطنا .. وكل مـاتعطى ويأخذون يجب أن يبـقى قشرا يتـساقط لايصنع جذرا .. ومن النساء اللائى كـنت تتقاسم مـعهن أجـورهن إدخـرت المتـفـردات فى المسـتنقع .. وضـعت تاريخهن فى ملفاتك .

زمبرك هذا النوع من النساء تعـرف كيف تملؤه وتطلقه .. هن أيديك التى تحـفـر ليـقع الغاوون وتعـلو أنت .. لقد كـانت نسـاء الزمبرك فرخك الذى أفرخ مستقبلك .. عرفت أن العشش يجب أن تمتلئ بالفراخ ... وأن لايفلت ديك أو تيس برغبـته .. جائعون بين أرجل الفراخ تتلـصص عليهم وتثبت المـشهد وتطـبع وتسيطر .. كيف أدركت وحـفظت وطبقت تعـاليم أجدادنا ... أبدا .. لا عـلاقة للسياسة بالأخلاق .. والشرفاء لايصلحون لشئ .

أدركت وحـفظت .. لاتنفـذ إلا عبـر الراكد والـعطن الفاسـد .. الفضـيلة خيـمة وحجـة الضعفـاء .. تخطط لتقوى وتـكبر وتملك وتتحكم وتجـمع أصحـاب الغرائز المنحطة وتغدق .. بمـثلك ينبت وسيظل ينبت ذراعنا حيث نريد أن تمتد أصابعنا وتفعل .. وتكون ذراعنا فى جسدهم .. ونكون خلفك .. إذا كـانوا قد زرعوا الأرض فقـد انتقـينا بذور الفساد وخـططنا لنجعل أعـواننا الأقدر .. إسق البذور وانصب الشراك .. واجعل الذباب يـلتصق بالعسل .. عسل نسائك اجـعله بحرا ضـاع قاعه .. من يقـاوم الغرق يمـتلئ حلقه ويفرغ ما ملأ بطنه ويفقـد الجاه والسلطان والنفوذ .. إضحك فى بطنك لسذاجتـهم .. سنطلق عليك رصاصا لايصيـبك ويختلط مع رصاص المـتهوسين منهم .. أعـددنا النار وأنضجناهم فوقـها .. وأصـبح فقـرهم وجـهلهم وقودا لهـا .. العنف والإرهاب أفـضل

طريق للسيطرة .. سليم تنفـذ من رصاصنا وإلى قوتك يضـيفون غطاء ربهم .. أنشـر من ينشـر الاستـسلام والبـلادة تحت الغطاء والعقول تقول بغير علم واليد تقبض بغير عمل لتحركها ونحركها كما تريد .. وكما نريد فقد أصبحنا واحداً ... ضخ وادفع ووفر ما يعلف الحـروف ويسـمن الكـلمـات حتـى يغطى الذهن المـعـانى ويضيع العظم والعضل .

سلمك كانت درجاته من لحم النساء العارى .. فى الظلام وأنت تصعد كنا نرقبك .. عـرفنا أنك ولدنا الموهوب .. الغواية والدهاء الذى تمتلك لايمتلكه إلا الـوارثون منا .. أدركت أنه لابد من إقامة الفساد وتثبيت جذوره لتقيم مملكتك ونقيم مملكتنا ونجد أرضا لأوتادها .. إنه سرنا الذى سيودعـه علماؤنا فى الخلية .. لايذهب الكورمـزوم إليك إلا لو لقحت سـلالتك منا .. إنك تمارس الغـواية كأنك تتنفس .. إنها درجة لايرقى إليـها إلا معدودون ظاهرهم من أهلهم وقلبهـم منا .. لقد حرصنا أن نندس فى اللـحم لنخرج من أهله من تجـرهم السـلالة ـ إليـنا ـ انكم فى الظاهر مـنهم وفى البـاطن من أبناء لحـمنا .. تذكر شـعـر شمـشون فـوق رأسك .. لاينبت إلا فى المـراعى التى اكتشـفناك فيهـا .. لو لم تسق وترع جيدا تسقط مملكتك ومملكتنا .. ضع الأكفان على تلك العضلة بين الرئتين واضرب على أكثر الأوتار حساسية فى ذهن الناس .. إنها رغبـاتهم الأنانيـة التى لاتشبع وتجـعلهم طوع إرادة من يريد أن يشترى ويدفع .. إنهم ناسك فاجمع ماتستطيع منهم واملأ بحرك بالعسل .. واحـقن الرءوس بلها يكبر الجـهل ويستشرى الفـساد بينهم فيزداد إطمئنان قلبك وقلوبنا .. وتتقدم ولاتتوقف .. لم يكن لمطامـعك حـدود .. تذكـر دائمـا عـبـر التـاريخ مـا الذى روض الحيـوانات الوحشية .. هؤلاء الاغـيـار الذين ليسـوا منا ونضـحك على أنفسنا ونطلق عليهم الناس مثلنا .. إن الشعب سواء كان من

العامة أو غير العامة فإنه ينقـاد دوما بعواطف متقلبة وبالخرافات والعادات والتـقاليد وبالنظريات فـإملأ بهم كل مـاتضع يدك عليه يزدد نفوذك ويقوى سلطانك وتكبر

لقـد كان الظلام ملعبك .... صنعت فـيه مسـتـقبلك .. عـرفنا مؤهلاتك لمـا أدركت مبكرا أن الخداع والمـكر طريقك والشر هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الخير .

وأن الغاية تبرر كل وسيلة اليها .. وأنت تأخذ شرائط الغاويات من بين سيقـانهن لتدفعهـا لرءوس مؤسستك ليخـدعوا رءوسـهم ويديروا المملكة لحسابهم .. وأنت تخلص وتبدع فى مهمتك حتى أصـبحت لاتنافس فى جلب الـغاويات واسـتخـدامهن وإغـرائهن وارهابهن .. ولاتنس نـصـيـبك فى جـيـوبهن .. وتتـطلع أن تأتيك صنانيرهن بصيـد اكبر لك وتمد بصرك وأنفك واسـتذلالك لترفع سلمك من اللحم العـارى وتديره لحسـابك الخاص .. عـرفت أنك يجب أن تظل مـخـتفـيا حـتى تتـمكن جـذورك فلا تطيـرك ريح ولا تسقطك زلازل .. جهدك الذى بذلت فى شبابك خططت ليعيدك ويثبت أركانك .

رجل الكنترول والتامين .. كان اسمك فى أوراق تحقيقاتهم فى واحـدة من القـضايا التى حـاولوا أن يحـاكـموا فـيـهـا أسـبـاب هزيمـتـهم.. كنا نجـمع الأسـبـاب لنـرعاهـا ونرعى رعـايانا من المخلصين الذين شاركونا صناعتها .. كل من يشـارك فى صناعة نصرنا وهزيمتهم يصبح منـا .. كنا نخزن النار ونحبك المؤامرة حتى يؤذن أوان الاشتعال ... بأيديكم وضـعتم الخية فى أعناقكم وقطفنا الثـمـر .. فـى بنوكنا السـرية للسـيطـرة نضع أرقـامكم وأسـماءكم ومـخططاتكم وخطط مـساعـدتكم وحمـايتكم .. وفى أرصدة السـحب وحسابات التهـديد نضع أسماء أعـدائنا وأعدائك من ذلك الصنف الملعون الذى لايباع ولا يشـترى .. لاتيأس ليس

صعبا أن تجد لبعضـهم ثمنا ... الأسوأ منهم الذين لايستسلمون.. عيوننا عليهم ..

يموت بعضـهم فى حوادث انفجار أو احتراق أو اغتيال .. هم الذين يختـارون شكل مـوتهم ووسط الاغيار ننادى بما كـانوا ينادون به .. منذ الأزمان الغـابرة كنا ننادى فى وسط الجمـاهير بكلمات الحرية والمساواة والأخـوة وهى كلمات مازالت الببغاوات ترددها حتى اليوم بلا انقطاع وهى تسـعى من كل ناحية الى هذا الطعم .. خلاصك منهم تميمتك ـ المسـاوا ة لاتوجد فى الطبيعة.. وحكماؤنا عرفوا إنه لا وجود للحرية لأن الطبيعة ذاتها خلقت عدم المسـاواة فى العقول والأمزجـة والقدرات وأنها أخضـعتهـا كلها لقـانونها .. أدعـياء الفـضيلة والمـوهبة الملعـونون .. اخفـاؤهم وأسدال النسـيان والاهمال عليهم مـهمتك .. عليك أن تختـار بين وجودك ووجودهـم ... الوجودان لايجتمـعان .. المعركـة حياة أو موت حـسابات المكاسب والخسـائر ترقبـها أجهزتنا ... رجـال المـحفل الـمقـدس عيـونهم لاتغـفل ... لا يحكمنا مـثلهم قـانون المصادفة ثم تهزمنا مفاجآته . •

يوم صدر الحكم بتجريمك وطردك ولم تيـأس .. عدت تستذل نفسك وتتـسلل تبحث عن مـوقع جديد لقدمك وأنت تعـرف كيف تتصب سلمك وتـصعـد .. هزيمـتـهم لا تطيـر عـقلك .. هزيمـتك وطردك محنتك .. الصـياد يعرف كـيف يرمى شباكـه مهمـا علا الموج واشتد الليل حوله .. لك زرعك الذى يجب أن تسمده ليعمل ساعـة تعاود الامسـاك بطرف السلم لتصـعد .. ولما ذهبت اليـها تسـتـعيـد حلفك القـديم وتعـيـدها إلى التـجنيـد ... قنينات الدم المـحفـوظة فى الأقبـية والتـى تجمع من دم أعـدائنا فى معـارك انتصـاراتنا واسـتعادة أرض أجدادنا ... تضاف قـطراتها للانخاب فى انتصـاراتنا الكبرى وعندما يعلن تشييد ركن من أركان مملكتنا

فى أى أرض .. أمـا اذا حدث التـشـيـيد فى جـزء من أرض الحلم فـالأنـخـاب كلهـا تصـبـح من الدم .. امـتــلأت المـرمــريات والكريسـتـالات بالدم الساخن ولـكن لم يكن لهـا حرارة نسـائك الغاويات الـلائى يمارسن الغواية كـأنهن يتنفسن الـهواء هاويات التـرف اللائى ارادتهن طوع من يدفع وليس لأطمـاعهن سـقوف ورغباتهن لاتشبع .

وهى ....

قصتها محفورة فى تاريخنا البعيد .. سالومة بنت هيروديا ... تختلف الاسماء وتتلون الأقنعة وتبقى اللبؤة واحدة .. عثرنا عليها وأيدينا تبـحث عن شـركـاء لدعـم خططنا القـادمـة ... وجـدنا مؤسـستكم تضع القـواعد وتحرث أرضكم لنـا وتشيد .. خـدعوا رءوسهم وأداروا مملكة النساء لحـسابهم وحسابنا ... العطب دب فى الأوتاد والجـبل يتخلخل ... وهى واحـدة من نساء المـملكة .. كريستالة الجسد قبيحـة الوجه عجفاء الضوت لا تملك إلا موهبة الغواية والشر .. والاغـراء الذى تصنعه بجسدها يطارده وجـهها القبيح ... بخس ثمنها فى سوق نسـائكم .. تبحث عمن يدفع أكثر .. سندفع لهـا وتعطيك وتعطينا وتكون لك ولنا وهى تعـيد تاريخ سالومة وتأتى برءوس تحتاجها ونحتاجها .. عبر جسدها وامتلاء جيوبها الوصول إليها أقرب من ذراعك الى جسدك .

فى ملفات السيطرة معلومـاتها تتجـمع وأرصدة الثـقة فيـها تكبر.. تردد فى كل مكـان أنها ابنة ضـابط بالجـيش .. تكذب بعدد شـعرها الطويل المـصبـوغ بأكل العـصافـير .. لم يعـرف أبوها الطريق إلى دراسة عـسكرية وبذلته الرسمـية والعلامات اللامـعة على كتـفه جاءت بهـا له زوجتـه هيروديا وإخلاصـه لرؤسائه .. هيروديا زوجته سبقت ابنتـها سالومة الى السوق .. ومن صدرها المدلى كـصدر ذئبة جـائعة أرضعـتها الغـواية وأورثتها الجـسد

التـرق الشاهـق وفنون الصيـد ورقـصة الأفـاعى وخلع الاقنعـة ودست لها مع وجـباتهـا المتعـة وخلصتـها من ذلك الهـوس بما يسمونه الشرف والمبادىء .

وهو ....

هذا الجنرال .. يتسـلل فى الليل الى هيروديا .. يعشـقها كـما يعشق الجلوس على الارض والدق لها فوق أغطية أوانى الطهى .. وحدها رقـصاتهـا التى تنسيـه أصوات الدانات والانفـجارات ... نشوان بدوران هيـروديا فوق رأسـه .. ينفتح ثوبها كـمظلة وهى أجمل مظلى تمنى أن يتلقاه بين ذراعيه .. تصـير السيقان الطويلة البيضـاء قضبان ملبن تلف الأرض حـوله ـ هذا المعتقل الـحبيب لو يختـفى فيه للأبد .. يتحـين قبله على الكعب الأحمـر .. يغسل صدره بلعـابه .. تدور هيروديا وتهـتز .. تدور أرضهم وتهـتز ... ينبت للمـملكة ضلع .. ويرتـفع عمـود وأعـمدة ... يخـتل الجـبل ويتسع الشق ..

فى بدلة الرقص اللامعة الحمراء سالومة تقلد أمها .. تبرع فى رقصة الأفعى التى اشتهـرت بها .. على الأرض تدخل فى بعضها ثم تتلوى وتتمدد وتصعد وتنصب جـسدها عمود رخام فى الهواء .. سـامر الليـالى يتسع .. رفاق الجنرال من هواة الخـمر والنسـاء والورق يتـجمعـون ... وسطهم سالـومة كزهر تـتفتح .. لـم يعد نصيـبها من الرقـصات المجـانية خلف أمـها يكفيـها ... تريد أن تقاسمها الأرباح ونصيبـها فى حصاد الموائد آخر الليل والفراش والجنرال ... بذرة الصراع بين اللبؤتين لن تقتلع من الارض أبدا .

الغيرة بين البنت وامها ستحـرقهما .. سالومة وهيروديا .. من تسبق وتـأكل الثانية .. النار تـتاجج والحى الهادىء الجـديد على أطراف العاصـمة يسمع لليل صـخبه وسهـره وفحيحـه والنهار يشهد معارك المرأتين حتى عرض الطريق وقسم الشرطة .

المصادفة .. النصـيب .. القدر ... الجنون .. كلها ساقت البطل إلى طريقهـا ..بأول أموال جمـعتهـا من عرق جـسدها وعمليـاتها الخاصــة اشترت سيـارتها الأولى .. خنفســة صغيـرة تجعل من يركب معها لابد أن يلتصق فيها وهو الضابط الصغير الخارج من قشـرة البيضة إلى الدنيـا .. فرحته أكـبر من وسعهـا .. عائد فى أول إجازة من وحدته فـى خط القناة فى ردائه العسكرى الأبيض تضاعفت وسامته .. خشى على أناقته وهندامه وجهد الكواء طوال الليل ... على مـشارف المـدينة غادر سـيارة الوحـدة المزدحـمة بالشلة من ضباط الدفعة الصغـار مثله .. أحصى النقود فى جيبه وقرر أن يضحى بها وينادى أول سيـارة أجرة تجرؤ على اقتحام هذا الخـلاء البعـيد ويدخل بهـا حـيهم فى كـامل الأناقة والأبهـة ويتهادى وينزل منها ويرفع رأسه إليها ـ بهية ـ حبيبته المنتظرة فى نافذتها المواجهة لنافـذة حجرته ... و.. ومثل جين كيلى نجم السينمـا الأمريكيـة فى الأربيعـينات فى رقصتـه الشهـيرة تحت المطر رقص الضابط الشاب بانفجار قنبلة من المياه تحت عجلات سيارة صــغيرة مندفعة كالإعـصـار .. سقطت السيارة واسـتقرت فى حفـرة ضخمـة يبدو أنها تحـولت إلى خزان مـياه .. تلقى كل رذاذ الانفجـار وتجمـد غارقـا فى مائه وطينه .. لم يعـرف الولد الغريـر أن القنبلة أبدا لم تكن من ميـاه وأنه يحتـاج إلى معـجزة ليغتسل من طينه .. ولكن من يعرف ..

كمـا عرف من إمرأة الخنفســة التى لم ير ملامحـها من وراء الزجاج المغبب ولكن حكت فيما بـعد.. أنها لما شاهدته فى أناقته البيضــاء وهى تندفع بسيارتها وهو يتـراجع إلى الوراء لم تعرف متى كان للقـمر وجه رجل وجسد حصان لم تـر الحفرة ولا كان بالإمكان ولما وقعت فيها ظنت أنها حبـست فى شهقتها واحتاجت وقتـا حتى تـتبيـن ما حدث.. من وراء الـزجاج أثارتهـا وسامـته

ونسيت جدع ظهرها وجرح ذراعـها.. تذكرت الوجه النحيل للملك فـاروق كـما كـانت تراه فـي صور صـباه.. أول صـورة لرجل حفظتها في كراستها.. ثم نسـيتها بعد أن ظهر الجنرال مع أمها.. أعاد الضابط الجميل الحلم القديم بمـلامح الفروسية التي يحملها في وجهه.. لمـا رفعها بالسيارة وأخـرجهما من المسـتنقع فتحت الباب ونادت عليه ليـرى ان كان ظهرها انفتح وشدت شيـئا جعل ثوبها كله يقع عنه.. طالما تحـسس رخام لحم الهوانم الوردى في حيهم الشـعبى وراء الجبل وطالما خاف أن يحـيي الشوق الرخام بين كفـيه.. تألم لحم الهوانم الحى بينهـما حتى خشى أن يحـرقه بهما.. وفي بيـتها المتواضع المكون مـن طابق واحد ـ لم يكن قد أصبح .. برجـا بعد ـ عـبرت بسيـارتها وسط مـشتل زرع انضم إليها وأصبح برجا ثانيا فيما بعد أيضا.. تجاسر أكثر من مرة ومد يده يحس ملمس الرخام البشرى ويتأكد أنه لا يحلم.

في حجرة الضيوف خلع بذلته لتـذهب وتغتسل.. وفي بيجامة ناعـمة تخـدر جسـده بملمس الحرير الذى لم يتـعوده من قـبل.. ووجد نفـسه ابنا لأمها وأبيـها ضابط الجـيش كما قدمـته له.. لو حدث مـا حدث في حـيهم الفقـير لعـاد إلى أهله غارقـا في مائه وطينه .. لأول مـرة يشم للفقـر رائحـة قهـر وتعاسـة واكتـشف الفارق بـين تقاليد أهـله المتشـددة وهذه الدنيا التي تـحررت من العقـد والتعقـيد.. بعد ان فعلـها اكتشـفها. وجد أنه أسرع وخلع الدبلة الفضـية وأخفاها في جـيبه.. لأول مرة يكتـشف ان الحلقة التي تربطه بابنة خالته ليست في يده اليمنى وإنما في رقبته.. أمه ومحـبتها وتقـاليدهم ووفاؤه لهم وقـصة الحب التي جمعـته منذ الثانوى ببهية.. وطريق الجبل ومغـاراته ومغامراتهما.. وولعها به وجنونه بهـا وخـوفه عليـهـا في ذروة لحظات الاشتـيـاق إليهـا وصورته التي طبعـتها في ظهر آية الكرسي ولا إله إلا الله مـحمد

رسول الله المقسومة بينهما كيف يخونهم ويخونها..

المعركة القديمة بين اللبؤتين لم تكن قد خمدت نارها.. الشمطاء العارية والغاوية القادمة.. هيروديا تريد سالومة بعيدا عن طريقها.. فتحت البيت للضابط الغرير وأشعلت الرغبة وسكبت الوقود على النار المشتعلة.. وأحكمت هيروديا الخطة.. البيت الصغير نواة الصروح القادمة على طرف طريق الضابط الشاب فى ذهابه وإيابه.. مسحورا.. مسلوبا أصبح هناك.. أصبحت الرغبة طريقه.. تلك الليلة تواطأ نزيف الأمطار.لماذا لا يبيت الضابط وسطهم حتى يسكت المطر ويغادر إلى وحدته فى الفجر.

.... كان لم يطلع بعد.. فالإظلام كان كاملا.. استحال عليه أن يفهم ما يحدث حوله.. أرجعه اكثر من مرة إلى كابوس سيصحو منه.. إمرأة لها وجه هيروديا تندب وتلطم وجهها وتشق صدر ثوبها.. ورجل بطول الحائط وعرضه كان له وجه أبيها مضروبا فى أضعاف حجمه الهائل.. كان يرفع مسدسا فى وجه له ملامحه القديمة وجسد شبه عار.. من خلع له ملابسه ووضع امرأة بجانبه.. سالومة من فرط تبديل أقنعة وجهها الملونة كان يشق عليه أن يتذكر لوجهها ملامح محددة.. فى الكابوس الذى كان يحدث كان لها وجه الشيطان بعد أن تداخلت وامتزجت ألوان واشكال جميع أقنعتها.. ومن صيحاتهم فهم أن وجهه يحمل بصمات ألوان وجهها.. فى البداية اعتقد أن البقع الحمراء على الفراش وقعت من وجهها أو من وجهه.. كانت من فرط ما سقاها من زجاجة فارغة إلى جوارهما فى دوار وغائبة عما يحدث لها.. سكران بغير خمر كان الولد.. مذهولا لا يصدق يضحك فى هستيريا.

على المشهد الذى سمعه وكذبه.. الآن يتأكد كيف أصبح للوالد رتبته العسكرية بغير علم ولا ماض عسكرى ولا تأهيل... يهز

رأسه ويقسم لهم كل شيء يصبح ممكنا مادام النصب أصلا... إستعاد المشهد الذى سمعه ولم يصدقه عما يحدث فى صحراء المعادى خلف مستشفاه الكبير فى الخيمة المجهزة بمستلزمات الليالي... يحمل فريق ضرب النار مهمة احياء الليالى - فى طابور عسكرى ووضع الاستعداد لاطلاق النار يشهر أفراده النرجيلة والجوزة بعد اعداد الاحجار وإيقاد الجمرات وسائر مطالب المزاج والسلطنة - بالخطوة العسكرية يتقدم السيد المبجل والدها - يتقلد شرف قيادة قوات ضرب نار المزاج.. أوصلته هيروديا اليه فبعد أن رحب بالجنرال عضوا فى الأسرة ترقى إلى مرتبة الخدمة فى الخيمة وتكلل اخلاصه وبراعته بضمه إلى الكادر العسكرى ثم رقى إلى قيادة فريق النرجيلات.

هستيريا الضحكات وترديد الضابط الغرير وسط هذيانه لوقائع تكوين فريق ضرب النجيلات زاد المشهد جنونا.. مذهول لا يصدق أنه فعل مالم يفعل استغرق وقتا ليفصل بين الوهم وحدوث ما يحدث ولماذا امرأة على صورة أمها تقاوم وتشد مسدسا من رجل على صورة أبيها.. كان مازال يبحث فى الغرفة عن المتهم بسرقة شرف سالومه.. عرفه عندما أجلسوه الى شيخ كتب عقدا وعرف أنه قد أصبح زوجا لامرأة الخنفسة والحفرة والمستنقع.. ومائدة اللحم عارية ومفرودة أمامه وقد أسكرها الشراب الثقيل الذى عادت إليه حكت كيف دبروا وأوقعوه وضحكوا عليه.. تجمد الرخام وفقد لونه الوردى وعرفه ميتا ومتجمدا لأول مرة.. سقطت الرغبة فانكشفت كل السوءات.. كانت هيروديا قد استردت أنفاسها وانطلقت كما خططت وحيدة فى لياليها وظنت ان زمانها عاد وصفا لها وخلصت من منافستها.. وعادت ليالى الرقص تشتعل على دقات أوانى الطهى يعزفها الجنرال وهو جالس تحت أقدامها على الأرض.

جنت النار وأصابتها الحمى لما اكتشفت سالومة مؤامرة هيروديا لابعادها.. والضابط الغرير يقيم حصارا حولها.. الولد من العامة التى تنقاد بالخرافات والعادات والتقاليد ولا يكف عن ترديد ذلك الشيء المبهم الذى يسمونه شرفا.. حدسه له عيون تتحسس ما يحدث.. يريد الدليل بين يديه.. سالومة بدأت تعمل لحسابها.. المال والقوة شرهها لهما يجن ويجرف كل ما يقف فى طريقها.. رومانسية حلمها الخائب طيرت أبراج رأسها وأطبقت مطاردة الولد.. أصدرت حكما بالخلاص منه وجاءت بصاحب النفوذ الذى يستطيع وجعلت الولد يري.

أيها الولد المسكين لماذا تعود إلى وكرهم الآن...؟ فراشك مشغول وأنت لا تتعلم.. أمام المشهد مرة أخرى يفقد عقله ويهذى ويهدد ويردد أن ذلك الشيء المبهم عند سالومة والذى يناديه الولد بالشرف قد وقع عليه اعتداء.. ومرة أخرى لا يستوعب درسا من الدروس التى حاولت أن تعلمها له.. كن قويا تكن شريفا.. وتكن كل ما تريد.

... فجر آخر كان لم يطلع بعد فقد كان الاظلام كاملا... كانت قوة بأسلحتها الميدانية تحاصر البيت وتختبئ وراء الأشجار وتحت النوافذ.. الفرقة لتنفيذ مهمة انقاذ الضابط الكبير من محاولة اغتيال قام بها زوج ابنته.. الضابط الغرير كما لم يفعلها فى ليلة الاغتصاب لم يفعلها فى ليلة الاغتيال - كيف نفذوا كل ما لم يفعل... بميكرفون ترددت أصواته فى الفراغ المحيط والذى امتلأ ببشر أحاط بأسوار البيت والمشتل الذى اصبح حديقة للبيت وقف جامدا يتفرج... نادوا عليه وكرروا النداء.. سلم سلاحك ولا تزد موقفك تعقيدا.. ذليل ذل من لا يفهم ولا يعرف كيف يدبر أموره ليكسب.. مكبل بالقيود.. مغسول بدموعه خارت قواه.. بالكاد تحمله ساقاه.. تهاجمه كوابيس ما حدث منذ ليلة

المستنقع وإلى ان عاد إلى بيت سالومة ووجدها تتغطى برئيسه.. والسيارة المصفحــة تطوى الطريق إلى المعتقل حكى لزميله الذى نفذ المهــمة... رق قلب الذى قبض على المقبــوض عليه وأخذ من جانبه السلاح الذى لم يمسه وطوحــه فى النيل والسيارة تعبره.. داخل المعتقل لم يســقط الاتهام لأنه لم يكن بحوزته سلاح ولكن لأنه استسلم وطلق سالومة ووعد بقطع لســانه وخزق عينيه عما لم يسمع ولم يشاهد ولم يعرف.

عاد إلى حيه وبــيته القديم يختبئ.. المــستحيل فعلته الحــبيبة القديمة حتى استطاع أن يطل على نفسه فى المرآة.. طلبت منه أن ترتدى ثوبها الابيض.. أجلا الزفاف حتــى ينتهى من فرقة بوحدته للترقى لــيتزوجــها الفارس الــذى يليق بها.. انخرط فــى تدريباته القتــالية واستــعاد فتــوته ولياقتــه البدنيــة والنفسيــة.. فى دقائق السمر المخــطوفة الهمسات تصنــع نشرات أخــبار خاصة.. وتردد الاخطر عــما يحــدث.. ويغــادر حذره ويحــكى .. قالوا له إن أمــر سالومة أكبر مما ذهبت خــيالاته ورأى أو سمع.. وأن خروجه حيا من وكرها مــيلاد وبعث يحــتاج نبيحــة فداء وعدهم بهــا فى ليلة عرســه.. حكوا عن المؤســسة التى أصــبحت من نســائها ورددوا إسم رجل التــأمين الذى يقف وراءها.. وتهــامســوا بشائعــات عن اتصالاتهــا الأبعد... لم يصدق أن لها قــوة إلا بالمستنقع وســيقع فيه كل من لا ينتبه ولا يحذر.

فى بدلته الرســمية ووســامته الــتى استردها ودرجــته الأعلى تلمع فوق كــتفه ووسام الصــاعقة.. مولود من رحم الرحــمة التى طببته وضمدت روحه واستــعادت له محبوبته.. عائدا من وحدته.. سانجا.. نقيا كعادته.. يظن الطريق سالكا.. يغلق عينيه فيرى وجه المحبوبة فزعا وذراعيها يصدان شيئا لا يعرفه.. لابد أنها أشواقه التى أنبــتت للسيــارة العائدة بهــا أجنحة.. الكشــافات القــوية فى

عـينيـة تمـنع الرؤية.. من قطع الطريـق.. ومن أوقف السـيـا رة.. ولماذا .. لا وقت لأسئلة.. والاجابات جاهزة .. فى غمـضة العين انتهى كل شيء.. ومرت عجـلات السيارة المعترضة فـوق ساقيه وتركته غارقا فى دمائه.. ممددا وفاردا ذراعا.. والثانية مدلاة الى جانبـه والبدلة العسكريـة والاحلام الوردية.. ووجه بهـية... غطى الطين كل شيء.

من يقف فى طريق سالومة يفقد ساقيه وذراعا فوقهما .. كان الاتفاق ان يفقد عمره.. لا أحد يمشى فوق أرجل الندم.. وسالومة نار من يقـترب منهـا يحتـرق.. واحـترق وسكن المـقعـد للأبد.. وانطلقت هى تـشق طريقـهـا المفـتـوح إلى المـسـتـقـبل.. وفى مـؤسـسـتكم تعـمل وتجند فـراشـات الليل الغـاويات.. تعـجـبك جسارتها.. صـنف من الفراشات يستسلم لحمـايتك.. على ناصية الطريق حـيث تنتظر لتـقـبض .. هى كـادت تشق بطنك.. لم تعـد تستند إليك وحدك.. دخلت أنت فى جلدك تتربص لتعرف.

كنا نؤمن ظهرها وتأتينا بالمعلومات ونغدق.. اللبؤة المسعورة لا تشـبع... تعمل عـلى جمـيع الجـبهـات لتقـبض.. وجـسارتهـا وفجورها تحتاجهما فمطامـعك لم تتوقف عن الامتداد للمستقبل.. جعلتهـا تتسلل لتترقى وتكبر وتظل تـحت جناحك ـ انها من نساء الزمـبرك الذى سـتحـتاجـه لتـأمين غـدك.. وفى الظلام وأعمـدة مملكتنا الواحدة تعلو كانت ضمـانات الأمان تتجمع لنا.. والاموال على سالومة تتـدفق منزل الطابق الواحد تعدد.. وأكلت التمـساحة الخنفسة.. والرصيد فى البنك يكبر.. وفى رقمها السرى بالخارج وصلها الإخطار حـاملا عدد الأصـفار التى تم الاتفاق عليـها.. لم يبق لها إلا المهمة الأخيرة.

قبل الساعة صـفر.. فى المـوقع الأخطر لقواتهم.. نـريد آخر صور لاستـعـداداتهم. الضربة الأولى يجب أن تحـدث لهم شللا..

خططت سـالومة ونفـذت حفلا للـترفيـه.. وباسم التسـرية ورفع المـعنويات أقـامت عرضــها الـراقص فوق بحـيـرة صناعيـة من العصائر المعـتقة.. ادعوا ان قواتهم فى القاعـدة الرئيسية سكرت بها وبرقص سالومة الذى أحيت فيـه ليالى الأفعى وخلعت أقنعتها السبعـة.. يدعون ان محاربيهم تساقطوا سكرا وإعـياء وأنه حدث فى القاعدة الأهم أن إنطفأ النور مرتين والتقطت الصور المطلوبة للمـواقع السرية.. سـالومة الجـديدة التـافهـة ظنت أنها فـعلتهـا وحدها.. كـثيرة أشيـاؤكم التى فعلتهـا لنا ومن بينها مؤسـستكم التى إنفرطت ولكنك فارسها وفارسنا الذى يواصل ويؤمن إمتداد السلالة.

فى أوراق التحـقيـقات التى حاولوا أن يحـاكمـوا فيهـا أسباب هزيمتهم كنا نجـمع الاسباب لنرعاها ونرعى رعـايانا المخلصين الذين شاركوا فى صناعتها لنا وتوفـير الوقود الذى أحرقهم، لما صدر الحكم بتـجريمك وطردك وسقـوط شرفك وأصبـحت ذليلا مسـتذلا مهـانا.. وعدت تبحث كـيف تعيد تشـييد أركـان المملكة القديمة.. ولما جمعت نسـاءها لتبدأ من جديد .. ولما وجدت مكانا صــغيـرا لقدمـك وعدت تنصب أسـواقهـن وشراكـهن وتوقع فى حبائلهن كل من يجب ألا يفلـت من السيطرة.. اختلف ظاهر الدور واتفق الباطن.. لم يعد مكانك مخفيا فى الظل.. أنت الآن فى النور وتقدر. لما تجدد التلقيح بيـنك وبين إمرأة يونيو أخرجنا الانخاب وشربنا فطرح الأشواك فى أرضـهم لن يتوقف.

ولدنا المــوهوب أنت.. تواصل صــعـودك وازدادت قــوتك.. المرمـريات الغاويات لم يعـدن فى مؤسـسة سريـة.. خرجن إلى النور مـعك يعمـلن بجد ليـحـفظن مكاسبـهن وتأمن اسـتمـرارك ونفوذك ويـتواصل تثـبيت المـلكة وأنت تسقى الشـجر الأكـبر فتـشتبك الجـذور ويستحـيل نزعك.. لا قوة الآن تستطيع قــهرك

ظللت كـامنا حـتى تمكنت.. أصـبح بيـدك أن تخـفى ذلك الصنف الملعون الذى يهـددك ويهددنا.. وتظهـر الغاوين والتافـهين الذين يزيدون الرءوس خرفـا وتحفظ كل ما أمنك وشد ظهـرك وأعادك من ليل التيـه الذى لم يعد منه أبدا إلا مثلك.. وتجعل تعـاليمنا كل يوم الأعلى.. قط لا عـلاقـة للسـياســة بالأخـلاق.. الذى يريد أن يسـيطر عليـه إن يعتـمد عـلى الخداع والمكر... ان الاسـتـقامـة والصراحة اللتين هما فـضيلتان شعبيتان تصبحـان نقيضتين فى السياسة لأنهما أشد فتكا بـبقائك من أقوى أعدائك تذكر جيدا ولا تنس أن أصحابك المخلصين هم أصـحاب الغرائز المنحطة فاشتر كل من يباع وادفع لتجمع المـتاح منهم وتسـيطر.. إنك لا تزداد صعودا إلا والدود يتكاثر والعقـول تهزل.. كلما انكمشت الرءوس وفرغت ازداد حـجمك ادفع للعيـدان الخضـراء ما يسكن عيـونها التفـاهة ويأخذها البـلادة.. ويجعل العنف طريقـها.. اتحـاد عملك ومصـالحه ونشاط نسائك ومـؤسستك التى عـادت أقوى - رغم اختلاف الظاهر واتحاد الباطن يجعل أصابعك من كفنا.. وكفنا فى ذراعك.. لم يعـد هناك من يقـدر عليك.. فـاعـصف وابطش فـقـد أصبحت آمنا وستأتيك سـالوماتك بأطماعك على اطباق من اطنان الذهب الذى تمتلك فانثرهن وانشـرهن واملأ بعسلهن بحرك الذى لا قاع له فكلمـا امتلأ توطدت أركاننا وأركانك .. مـن مثلك اليوم يستطيع ويقدر؟!

......

......

نشرت الصحف فى صـدر صفحاتهـا فى يوم لا أذكر تاريخه بالتحديد تفاصـيل حادث غريب لضابط مقعد ومـصاب بعجز فى ذراعه الـيمنى بمـسدسـه القديم الذى عـجز عن اسـتخدامـه فى الحرب ظل يحـتفظ به مربوطا إلى وسطه.. ينام ويقـوم به.. حتى

يوم الحادث.. فى احتفال فاخر فى مناسـبة هامة تقدم فى مقعده تقوده إمرأة ظهر أنها زوجته بدت كـأنها هرمت بالحزن اكثر مما كبـرت بالعمـر.. ووسط الشعـارات الحمـاسيـة ودوى التصـفيق الملتـهب.. وفى حركـة سريعـة مبـاغتـة أخرج مـسدسـه وأفرغ رصـاصاته بذراعـه العـاجز فى صـدر مـسئول كبـيـر كشـفت التحقيـقات عن صلة قديمة بين المسئول وزوجـة سابقة للضابط تغسل أمـوال تجارتها فى الرقيق بعـدد من الشركات السيـاحية.. أكدت التحـقيقات ان صلاتهـا القديمة بالمسـئول والتى تعود إلى ماقبل هزيمة ٦٧ لم تنقطع.

الفاجعة التى أودت بحياة المسـئول وحدثت تحت مئات العيون بدت فـيهـا الذراع العاجـزة وكأنهـا تحـررت من عجـزها للحظة الإمساك بالمسـدس وإطلاق النار. عادت بعدها الذراع تسقط إلى جواره كما كانت.

ليس معروفا إن كانت حالة الصمت الـتى انتابته رفضا نهائيا للكلام أم جزءا من صـدمة عصـبية.. وإن كـان فى حالته العـامة يستغرق فى هدوء وسكينة ويغلق عينيه فى سلام.

الأوراق المكتوبة أمدتنى بـها بهية زوجة الضـابط ونقلتها من شرائط كان يسجل فوقها خواطره..

مازالت الشرائط تمتلىء... نقلت ما يصلح للنشر.......

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٢٤١ / ٩٨

الترقيم الدولى

I. S. B. N

977 - 08 - 0709 - 5


مصر للطيران

هذا الكتاب

سكينة فؤاد أديبة متميزة ومتفردة .. فهى لا تكتب قصصا ليتسلى القارىء .. ولكنها تكتب أدبا يكشف عن اختلال المجتمع الذى نعيشه اليوم .. فهى تعبر عن الشخصيات المطحونة التى تعانى من قسوة الحياة ومع ذلك مازال عندهم أحلام يريدون تحقيقها ..

وقد نجحت سكينة فؤاد فى تجسيد هذا الصراع بين أحلام هؤلاء المطحونين والواقع الذى يرفض تحقيق تلك الأحلام المشروعة على الرغم من أنهم قد دفعوا «مهر» الحياة بالعرق والتعب والشقاء .. ومع ذلك يرفض المجتمع تحقيق أحلامهم ..

وفى كل أعمال سكينة فؤاد الأدبية .. وهى «محاكمة السيدة س» .. و«ملف قضية حب» .. و«ليلة القبض على فاطمة» .. و«دوائر الحب والرعب» .. و«ترويض الرجل» و«٩ ش النيل» .. وأخيرا «امرأة يونيو» تحاول أن توقظنا على الواقع المر الذى نعيشه .. وتقول لنا أن الزلزال قادم لا محالة إذا لم يسمح المجتمع بتحقيق أحلام هذه الشخصيات المطحونة التى دفعت «مهر» الحياة بالعرق والعمل والتعاسة ..

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم